رواية

السيزيفيون

كريم الحدادي

منشورات الطيوب



سلسلة الكتاب العربي

السيزيفيون

رواية

كريم الحدادي

الكتاب: السيزيفيون (رواية)

الكاتب: كريم الحدادي

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب العربي 21

صورة الغلاف: من اختيار الكاتب.

التصفيف والإخراج: موقع بلد الطيوب

www.tieob.com

toyob.libya@gmail.com

2023

"المرضى يعرفون أكثر من الأطباء...

لكنهم لا يعرفون أحسن منهم."

عبد الرحمن منيف، الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى.

الإهداء

إلى الصديق المتواضع والوفي

يونس الجناتي الإدريسي.

الرّيف

إلى حدود الساعة، بعد أن استنفذت كل المواضيع القليلة سلفا، لا شيء هنا غير الصمت يسود المكان بعنف. صمت رهيب. لا راديو ولا بيانو أو حتى كمان مهترئ، ليترجم هذه المأساة إلى موسيقى أو سيمفونية حزينة.

يقتصر الأب، الذي أكل عليه الدهر وشرب، على الحولقة من حين إلى آخر، مكسرا بذلك الصمت الرهيب، الذي يحاصر البيت من كل الزوايا، منتقلا من خلاله إلى الخارج. يستلقي على ظهره، كمريض في غرفة العمليات. كلما حرك عضوا، تداعت له كل الأعضاء بالألم، فيصدر صوت ضعف وأنين، وإن لم يفعل، نابت عنه عظامه الرثة في ذلك. جسم يطلب النجدة. روح معلقة. روح تحترق.

غير بعيد عنه، تركز الأم نظرها على الباب، وكأنها تنتظر ملك الموت. إنها تنتظره فعلا. خائفة. تنزف عرقا والمطر منتشر في الخارج. بالقرب منها، يمسك الزبير بفكيه إمساكا. لقد أتعبته حركتهما اللاإرادية، العشوائية. ولد مشلول الحركة والكلام. لم يحس يوما أنه كبر، وهو

الأخ الأكبر. لولا أمه، لما استطاع قضاء حاجته بعيدا عن الفراش. أتعلمون معنى ذلك؟ ولولاها، لما أكل أو شرب أو أخذ جرعة دواء لا يشفي. دواء صنع من أجل شيء واحد: مواساة المريض وربط أمله بأمل وهم منتشر في هذا الفضاء الشاسع، الموحش، أو ربما الروحاني، الوجداني: الريف.

بجانب الرماد، يحاول سليمان، وهو الابن الأصغر، أن يهيج نارا كانت قد ماتت منذ الأزل. تخيلوا هذا المشهد: "طفل يحاول مد يد العون لنار ميتة، لكي يحييها، يجعلها تثور؛ دون جدوى. إنها نار باردة تتوق للموت، والموت اجتاحها كما يجتاح الجراد حقول الشعير في الربيع. نار هي نار ثلاثينية حسناء، جردتها خيانة الرجال من الكبرياء الذهبي التي يخولها الجمال. الجمال فقط. حتى أولئك الذين لا يفقهون شيئا في علم الجمال أو في الفن، يحبون الجمال. يمكنهم أن يشوهوا سمعتهم أنفسهم بأنفسهم، فقط من أجل الخضوع إلى سلطة الجمال وسحره. كم يحتاج طفل من السنين لكي يوقظ بهجة امرأة جميلة حزينة؟

الجو بارد. وسكون الليل المبالغ فيه، يزيده برودة. المطر هو الآخر، يتساقط في صمت، كأنه يخشى أن يوقظ الأرض. مطر مليء بالحنان، الحنين، الخوف والغربة. مطر غريب.

الريف فارغ. الفلاحون خائفون على أنفسهم من الجوع أكثر من خوفهم على خرافهم وحميرهم. أن يفقد ريفي حماره، فكأنه فقد فلذة من كبده؛ وإن فقد كلبه فكأنه فقد صديقا وفيا وأخا عزيزا.

في الخارج، لا تكاد تسمع سوى صوت بعض القطرات غير المنتظمة، تزخ بخجل على سقف الحظيرة القصديري؛ فيغدو صداها كنغمات ناي حزين تائهة، منبعثة من حانة أندلسية عتيقة، أو كصدى نحيب أرملة، تندب رحيل أميرها قبل الأوان.

نام عبد السلام. فحالة النعاس والرقاد، تتماشى وحالته الشعورية كما الجسدية؛ فهو متعب، منهك، كما لو أنه عائد من ساحة معركة. غفى سليمان. وتوقف فكا الزبير عن الحركة دون سابق إنظار.

إلا أن الأم لاتزال تنتظر "غودو". فطمأنينتها رهينة بالباب. كلما دفعته الرياح فتمايل، يكاد قلبها أن يتوقف عن النبض. في عز الدجنة، لا شيء هنا لتوليد النور، سوى شمعة تشارف هي الأخرى على الموت؛ على غرار النار التي انطفأ لهيبها وسكن عند المغرب أو قبل ذلك بكثير.

وماهي إلا لحظات حتى سمعت وقع أقدام تشق طريقها بصعوبة في الوحل. طرق الباب، ففترت وانفثأت لعودته. إنه موحا المجنون.

- "الحمد لله على عودتك". تهمس الأم مخاطبة ابنها.
- "كنت في الجبل أنتظر بزوغ القمر. لم يأت القمر يا أمي. لقد خدعني. خذلني." يرد موحا بصوت مرتفع وعيناه تكاد تقفز من مهدها.
- "يا بني، إنه حتى لو بزغ لن تراه، فالغيوم كثيفة والمطر غزير."
- "إنها خدعة القمر يا أمي. فليس للغيوم علاقة بغيابه غير المبرر، المكرر..."

نام الجميع. إلا الأم، فهي لاتزال تنظر إلى الباب. يخطفها النعاس فترفضه، وكأنه حبيبها الأول، جاء ليصالحها. تغفو وتصحو، تقوم وتقعد، إلى أن يلتقط سمعها صياح ديكها المخلص، معلنا بذلك عن حلول الفجر.

في هدوء، يطل نور الفجر الذهبي بخجل. يتصاعد الضباب من الأرض وهو يراقص الشجر، معلنا عن يوم جديد. تنفض الطيور الندى وقطرات ماء عائمة على ريشها، لتشد الرحال نحو الشمال بحثا عن الطعام. تدخ الأزهار والورود الكونية عطرا خالصا في نسيم الفجر النقي. في الريف فقط، يستيقظ العالم بشكل طبيعي،

جنوني. إن حياة الريف واقعية جدا. حتى الزمن هناك واقعي. الوقت يحظى باهتمام الريفيين، الذين لم تسيطر عليهم بعهد تيارات العولمة التي لا ترحم، لا تميز بين كاهن ولا ولي صالح، إنها امرأة تتقن فن الغواية.

تهم الأم بجمع الحطب المبلل- وهذا وأول ما تفعل. فهذا جذع شجرة بلوط وهذه ورقة صنوبر وهذه نبتة دفلة وهذا غصن خرواع. تلملمهم بعناية كالنملة، فتضعهم في قماش لبضع دقائق حتى يجفوا قليلا، كي تلتهمهم النار بسهولة. تضع الحطب في الموقد. تشعل عود الثقاب الأول، فيشربه الهواء وكأن الهواء هو الآخر يفتقر إلى الدفء. تشعل الثاني فيسقط من بين أناملها الرقيقين رقة عود الند. في المدينة، يكفي أن تضغط على زر، لتضرم النار في بيتك وبيت الجيران..

فجأة، يدخل موحا وقد بلله القطر. تظن الأم أنه نائم، لكنه قضى الليلة على جبل "سيزيف"؟ ينتظر القمر. كيف لها أن تغفو وهو غائب؟ لقد تبعته إلى أن بلغ رأس الجبل، ثم عادت مطمئنة. يبدو أنه هو الذي لم يكتشف أمرها.

يتقدم في صمت، فتمد له علبة أعواد الثقاب. يشعل النار بهدوء ثم يسأل أمه:

- يا أمي.
- نعم يا بني.
- ما الفرق بين القمر والنار؟
- النار قريبة... يقاطعها...
- حتى القمر قريب. حتى إنه أقرب إلى من هذه النار التي تكاد تلتهمني...

بينما تخرج الأم القليل من الدقيق لتعد الخبز، يستيقظ عبد السلام ببطيء. يغسل وجهه وهو يرتجف من برودة الماء، فيخرج مباشرة نحو الحظيرة، ليطلق سراح خرافه الأربعة.

يفتح الباب، وهو عبارة عن قطعة من القصدير مربوطة بأسلاك من حديد. يخرج الخروف الأول ومن ثم الثاني والثالث. ينتظر كعادته ظهور الخروف الرابع، إلا أنه لم يخرج. دفعه الذهول إلى التأكد من وجوده، فإذا به نائم. يتقدم، والخوف انتشر في ركبتيه كالسم القاتل: " *انهض أيها الكسول، إنه الصباح*." يكلم الراعي خروفه وكأنه يكلم ولده. لا يستجيب الخروف. ليكتشف، بعدما حركه بيد لم تعد جزءا من جسده الهش، أنه مات ليلة البارحة جراء البرد. فسقف الحظيرة يشبه في هيأته الوهم.

عاد الراعي وهو يهرول وكأنه يطلب النجدة، ليخبر زوجته وأبناءه بهذا النبأ المحزن.

- يا... فاطمة... يا فاطمة، تعالي وانظري ماذا حل بخروفنا !

تخرج فاطمة بخطى ثابتة، وكأنها تعرف سلفا ما حصل؛ ثم يتبعها سليمان وموحا؛ فيظل الزبير يترنح في فراشه كأنه تحت وطأة الجاثوم. يجتمع أفراد الأسرة حول الجثة، كما لو أن اجتماعهم هذا سيعيد لها الروح.

تتكلم الأم بحسرة وتقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله". فيجبها موحا: " إنه لم يمت." "بلى، لقد انقطعت أنفاسه. ألم تشم هذه الرائحة الكريهة؟" يجيب الراعي. " نعم لكنه سيتحول..." يضيف موحا؛ لكن، لا أحد اكترث لما قاله، فقد دأبوا على نعته بالمجنون.

بعدما لفوا وداروا حول خروفهم، في جو من الندم والحسرة، أمر الأب سليمان وموحا بإبعاد الجثة عن البيت، والتخلي عنها لصالح الطيور والكلاب.

- يا سليمان! إن هذا الخروف ليس من نصيبنا، لم يبتغه الله لنا وسيعوضنا إن شاء الله... فأبعدا الجثة من هنا حتى لا تجذب الكلاب أو الذئاب فتكون خسارتنا أكبر.

بشق الأنفس، تمكن سليمان من دفن الجثة. قبل أن يشرع في ذلك، عارضه موحا بعصبية. "كيف تجرؤ على حرمان الكلاب من هذا الخير؟" ضحك موحا بسخرية ثم أضاف: "إنها ستتحلل، سواء غطيتها أم لم تفعل. فلا داعي لأن ترهق نفسك".

عاد الأخوان إلى البيت، دون أن يتبادلا كلمة واحدة. كان الأب والأم قد اجتمعا حول مائدة خشبية مهترئة، لتناول وجبة الفطور. على المائدة، إبريق فضي اللون، يحوي شايا وفطيرة واحدة، كانت أن قسمتها الأم بعدل إلى خمس قطع. يلتهم كل منهم كسرة الخبز في ثوان، ماعدا الزبير وأمه. فهما آخر من يتناول حصته. إذ اعتادت الأم أن تبلل نصيب الزبير من الخبز في كأس من الشاي الدافئ، لتطعمه إياه. ومن ثم تقتات هي بعد ذلك دون عجلة.

بعد الانتهاء من المأدبة، يلحق الأب بقطيعه إلى الغابة، فلا ينفك عن تفقده وعده من حين إلى آخر، خشية أن يناله مكروه أو يهاجمه حيوان جائع. أما سليمان، فينتظره يوم شاق وطريق وعر. الطريق إلى المدرسة. كان سليمان يكره المدرسة. ويرتادها فقط لإرضاء أمه التي تريده أن يصبح معلما.

يخرج بعد أن رتب كتبه داخل حقيبة من البلاستيك، خشية أن يتسلل المطر إلى كتبه فيفسدها. وقد لبس جلبابا يتسع كفاية لجسده النحيل، إلى درجة أنه يغطيه بالكامل، فيغدو في هيئته كفزاعة تتمايل في الحقول.

تبعد أقرب مدرسة عن البيت بعشرة كيلومترات. يستغرق سليمان حوالي ساعتين ليصلها. كان يرافقه عادة كلبه "إسبواغ"، من فصيلة "الراعي الألماني". لكنه اختفى منذ مدة ولا يعلم ماذا حل به، وقد حزن لغيابه حزنا عميقا. فهو صديقه الوحيد؛ بحيث لا يوجد في القرية جيران، إلا شيخ يدعى "با العربي"، وهو رجل ستيني، متصوف، يعيش وحيدا مند مدة. وقد اعتاد سليمان على زيارته من حين إلى آخر، لا لشيء سوى لأنه يعطيه في كل زيارة تمرة زيادة.

لا ينفك "با العربي" عن الصلاة وترتيل القرآن. لا يغلق بابه في وجه الكل: عابرو السبيل، المجانين، التائهون، الحمقى، المجاذيب والهائمون على وجوههم. لا ينام "با العربي" في الليل إلا قليلا. إن بيته هو بالنسبة لسكان القرى المجاورة، بمثابة "صيدلية الحراسة". يقصده الناس لعلاج أمراض الوسواس والمس، بل إنه يتقن عملية جبر العظام. والأكثر من ذلك أنه يساعدهم في تغسيل أمواتهم ودفنهم. ومع ذلك، فلا أحد يعرف أصله أو قصته. فقد استقر في

القرية منذ سنين، بعد أن ابتاع بيتا كان في ملكية رجل غني، شاء القدر أن يهاجر إلى المدينة.

بعد ساعتين من المشي، يصل سليمان إلى المدرسة. فيجد زملاءه في الفصل قد سبقوه، فجلسوا يترنحون في قاعة الانتظار؛ ينتظرون قدوم معلم يكرهونه سلفا. معلم عديم الحس البيداغوجي. لا يتردد في معاقبتهم لأبسط الاخطاء والهفوات. وكانت أقدامهم الفتية، قد غرقت في أحذية من البلاستيك؛ والتصقت بأجسادهم ملابسهم الصوفية المثقلة بالماء. فغدوا في تحركاتهم كطائر البطريق أو البط.

- ألم يأت بعد؟ يسأل سليمان.
- ليته لم يأت. يجيب ادريس جليس سليمان في الفصل.
- ألم ترى "اسبواغ"؟
- ألم يعد؟ يجيب ادريس وهو يرتجف.
- لم يعد بعد. يرد سليمان بحسرة.
- سأخبرك بشيء، لكن ليبق سرا بيننا. يقول ادريس بتردد.
- طبعا.
- أتعلم أنني سأسافر إلى ايطاليا هذا الصيف؟

- كيف؟ ايطاليا؟ مع من؟ أ ستسافر على متن الطائرة؟ يا للمحظوظ !

يضحك ادريس ضحكة خفيفة، موزونة وهو واثق من نفسه. ويردف:

- سأسافر رفقة عمي. والأكثر من ذلك، سأعمل معه في مزرعة كبيرة هناك وسأجني الكثير من المال.

تأخر المعلم. أصيب التلاميذ بالملل. فعادوا أدراجهم إلى بيوتهم المتناثرة في الريف والمطر يتهاطل. يتماطل.

في منتصف الطريق، على ربوة الحصان، كما يسميها موحا، اعترض سبيل سليمان مجموعة من الكلاب. كانت قد جذبتهم رائحة الجثة النتنة. فما إن رآهم حتى شرع في جمع الحجارة، بغية الدفاع عن نفسه. بغية النجاة.

اقتربت الكلاب وهي تلهث؛ وكان لا بد أن يرميها بالحجارة، لعله يصيبها بالذعر فتغير مسارها، وتسلك سبيلا غير سبيله. لكن ذلك لم يزد الطين إلا بلة. غضبت الكلاب وكأنها أصيبت في عين اللحظة بالسعار. فإذا بها تتهافت للوصول إلى ضحيتها: ضحية حقيقية.

خطر ببال سليمان أن يتسلق أقرب شجرة إليه، لعله ينجو- من الخوف أولا- فإذا به يلمح "اسبواغ". نسي تماما كل الخطر الذي يحدق به. رأى الكلب وقد كبر وازداد جمالا، يركض نحوه. بدأ حينها ينادي باسمه، وكأنه يريد أن يقول وبصوت مرتفع يتخلله الفرح والخوف معا: " لو أردت أن تلتهمني أنت ومجموعتك فلا مانع لدي. أسمعت؟ المهم أنني سعيد بملاقاتك فقد اشتقت إليك."

- اسبواغ... اسبواغ.. هذا أنا سليمان أ نسيتني؟

وفجأة تتوقف المجموعة، وكأنها ذعرت من نداءات الطفل المتسارعة، أو أنها فهمت قصده؟ مع ذلك فإن الكلاب تفهم. تقدم "اسبواغ" بهدوء كأنه يقول: "هذا الطفل يعرفني. ترى من يكون؟". بينما انتشرت الكلاب الأخرى في الأرجاء.

- اسبواغ... هذا أنا... سليمان... أنسيت من أكون؟

ما هو معروف لدى الكلاب أنها لا تخون. يقول ألبير كامو: " أنا أميل إلى الكلاب ميلا مخلصاً مُنذ زمن بعيد، أحب الكلاب لأنها تَغفر دائماً". بل إن الكلاب أكثر وفاء من بعض البشر. يحكى على سبيل المثال، أن رجلا قام بتبني كلب، فاعتاد هذا الأخير أن يرافقه يوميا إلى محطة القطار، حيث يذهب إلى العمل. يظل الكلب ينتظر صاحبه

إلى أن يعود، فيعود برفقته إلى البيت. لكن القدر شاء يوما ألا يعود الرجل. فأبى الكلب إلا أن يذهب كل صباح إلى المحطة، ينتظر عودة رفيقه ومالكه، دون جدوى؛ ليعود في المساء مخذولا، منكسرا وذلك لمدة أربعة عشر عاما. مدة كفيلة بدحض نظرية "السلوكية"، التي قد يعتبرها البعض سببا في عادة هذا الكلب. أليس كذلك؟

اقترب سليمان من كلبه وهو يرتجف؛ كأنه عجوز طاعنة في السن، أو كأخيه الزبير المسكين. وهو الذي رعاه وهو جرو، وداعبه في الحقول وعلمه من المبادئ الشيء الكثير. فما كان على "اسبواغ" إلا أن ينحني لصاحبه ويشير بذيله إلى أنه تعرف إليه. فبدت عليه ملامح الخجل، فسليمان كان دائما يمنعه من مرافقة الكلاب الضالة. أحس الكلب بالذنب. واستشعر تمرده على مبادئ مالكه الذي لم يتردد في احتضانه من شدة الشوق وهو يخاطبه:

" لقد تركتني وحيدا يا "اسبواغ". أين كنت كل هذه المدة؟ أحقا لم تشتق لي؟ يا لك من مشاغب."

عاد سليمان سعيدا، مسرعا إلى البيت، حتى يزف خبر عودة "اسبواغ" إلى أمه. فهي الأخرى كانت تحبه وتنتظر عودته، لا لشيء

سوى لأنه يكسر، من حين إلى آخر، رتابة البيت بنباحه وسلوكه الفوضوي.

- أمي.. أمي.. تعالي وانظري من جاء لزيارتنا..

دخل سليمان فخورا، مبتسما وكأنه حرر القدس. فهو نادرا ما يكون سعيدا. كيف تحلو له سعادة نسبية، لحظية، هي ليست في آخر المطاف إلا نوعا من الراحة والطمأنينة النفسية، وأسرته تعيش بؤس البؤساء؟

ها قد حان الوقت ليسعد أمه. لا. ليس اليوم. فموحا ليس بخير. دخل في نوبة بكاء هستيرية وهو في حاجة إلى المواساة. إلى العزاء؟ يجب أن تضمه أمه، كعادتها، إلى أن تنقشع أزمته، وإلا ألحق الأذى بنفسه. لقد حاول مرارا وضع حد لحياته، لولا تدخل أمه. لا مجال للسعادة إذا. "سر بوليشينيل"؟

يبكي موحا بكاء كطفل صغير، فتنتقل العدوى إلى الزبير. ربما هو يبكي على حال هذا الزبير الضعيف، المضطرب، المنزعج، المتأسف، الآسف، الغاضب، العابس، المكتئب، القانط... هذا الأخ الأكبر الذي لم يذق طعم الصداقة يوما، ولم يتبادل شعور الحب مع امرأة يوما. ألا يستحق هذا الوضع البكاء؟ النحيب؟ الندب؟ السعار؟

- ألهذا السبب هربت يا " اسبواغ"؟ لأنك لم تتحمل كل هذا البؤس؟ لن ألومك إذا. بإمكانك أن تعود حيث كنت. فقد كتب علينا أن نعيش طوال حياتنا على هذا النحو. لن تسعد معنا.. أقسم لك. لن يبتسم في وجهك أحد. حتى أمي ستمل من سلوكك الحيواني. وستصرخ، لا محال، في وجهك وتأنبك على النباح. أتعلم معنى ذلك؟ وإن سرقت خرافنا، سيقتلك أبي وسيقول بدون تردد، بأنك كلب ضعيف، غير قادر على حمايتنا. سيضحك عليك موحا. إنه يضحك بلا سبب. أريدك أن تعيش بسعادة، ما دمت حرا. ولن أجبرك على المكوث معي. أنا أحبك طبعا، لكن أنت حر. اهرب إن شئت. اسرح في الأرض. عد إلى منفاك. لا تلتفت وراءك. فلا أحد هنا مستعد ليدلل كلب. هاجر. اركض دون توقف، وأنبح إلى أن يقول لك الأفق: لا داعي للنباح، فقد صرت أنا وأنت سيان.

الحب يلتهم العقل

كان موحا طالبا دؤوبا في كلية الآداب. حيث كان يدرس الفلسفة. تراه يدخل مطأطأ الرأس، مشغول البال. وله كل الحق في ذلك. فقد عانى كثيرا قبل أن يلتحق بالجامعة. أتعلمون معنى أن تغادر الدوار أو القبيلة لكي تدرس بالجامعة؟ لم يحصل موحا على شهادة الدروس الابتدائية إلا بعد عناء ومكابدة. وفي ظروف أكثر بطش من تلك التي يمر بها سليمان اليوم.

كان موحا يرعى الغنم والماعز، حين كان زملاءه في الفصل يقضون عطلة الصيف ضمن مخيم أو سفر رفقة العائلة. كان يعلم معنى ذلك. فقد حرمه والده ذات صيف من هذه التجربة. كان ذلك اعتباطيا. ربما أنقذه من هذا الكم الهائل من الندم والخيبة التي تتربص به. كيف سيتحدث الانجليزية، وهو لا يعرف سوى بعض الحروف الهجائية وبعض الأحلام الطفولية الساذجة؟ اللهم الريف والماعز صفاء الجو وجودته، أو مأزق لغوي أو سلوكي محرج في الرباط.

كانت أسرته وقتذاك، تعمل لدى رجل ميسور، كان يقطن في الجوار؛ في البيت الذي ابتاعه "با العربي". وقد شاء القدر أن يهاجر الرجل إلى المدينة ليوفر لأبنائه حياة جيدة ويضمن لهم تكوينا أفضل في المدارس والمعاهد الخصوصية؛ ويضمن لهم بالتالي وظيفة ملائمة، في إحدى مؤسسات الدولة. فكان من فضله أن وهب عبد السلام بعض الخراف كمقابل على تفانيه وإخلاصه في العمل.

لقد كان الرجل محبا للخير. إذ ساعد موحا في الالتحاق بالمدينة لإكمال دراسته الثانوية؛ وساعده على الانخراط والاستفادة من خدمات "دار الطالب"؛ حيث يتوفر الأكل والشرب والكتب مجانا.

توفق موحا في دراسته، ونال تعاطف واحترام الأساتذة، وخاصة أستاذ الفلسفة الذي كان يرى فيه مفكرا وفيلسوفا، قال إنه سيكون له باع وصيت عظيم في البلاد. وقد ساعده كذلك في الحصول على منحة دراسية للالتحاق بالجامعة.

في طريقه إلى الجامعة، حدث أن رأى شابة جميلة كالقمر. فوقع في عين اللحظة في حبها. وهو يعرف مسبقا أن الحب لا يقاوم. إما أن تحب أو لا تحب. ولا يؤجل. فلا يمكن للمحب أن يقول: " سأحب غدا

أو بعد غد." إذ يتساءل "كريستوفر مورلي" قائلا:" *من الذي وقع في الحب إن لم يكن قد وقع فيه من النظرة الأولى؟"* .

إن الحب فرصة متعالية. فرصة وحيدة، أصيلة لا تتأثر بالزمكان ولا بالجاذبية أو "كلام الناس"؛ فرصة لا تؤمن بالإعادة أو التكرار. ولا تؤمن بالاختيار أو التردد أو الخجل أو الغرور. يمكن للمرء أن يقع في الحب عند الرابعة صباحا أو الواحدة بعد الزوال، على متن الطائرة أو في محطة القطار. يقول سقراط: " *الحب مرض جميل، ومن الحماقة أن نرفض الإصابة به."*

إلا أن موحا لم يجرب الحب يوما. لم يجرب يوما أن يتحدث إلى امرأة جميلة بداعي الحب. لا يعلم كيف سيبدأ الحديث ولا كيف سينهيه إن بدأه أصلا. خطر بباله أن يسألها عن الوقت. لكنه سؤال كلاسيكي. يسألها عن اسمها؟ " وما شأنك باسمي؟" كيف يرد إن أجابته بهذه الجملة القاسية؟ ربما ستطلعه عن اسمها. " لم لا أتجرأ على سؤالها؟" يسأل نفسه.

"لنفترض أنني تجرأت وطلبت معرفة اسمها وأجابت وقالت اسمي كذا وكذا، ماذا سأفعل بعد ذلك؟"؛ " قدم نفسك لها وعبر لها عن شعورك لرؤيتها وهي تمشي كالنسيم. أو قل لها شعرا ربما يعجبها

فتعجبها؟". " ممم... حسنا، مرحبا، اسمي موحا (يا للاسم الفظيع! لو علمت أن اسمي موحا لضحكت ضحكا وتجاوزتني كإشارة مرور معطلة.) اسمي ربيع وأنا طالب فلسفة. وأنت؟"، "اسمي رانيا. وأنا طالبة هندسة.".

وبينما كان طالب الفلسفة يناجي نفسه، بغية تكوين خطاب مناسب، ليلقيه أمام "رانيا"، حتى اختفت الفتاة فجأة، وكأن الأرض انشقت فابتلعتها. يجري من مدخل الجامعة إلى الأقسام التحضيرية، فلا يجدها. يمشي وهو يهرول نحو قسم الهندسة، فيتذكر أنه لا يعرف تخصصها بالضبط. ود حينها لو أنه سألها فلم تجبه؛ أو أنها أجابته بقسوة. أو أنها تطلعت إليه باحتقار وإذلال ففهم ونسي أنها المرأة التي سيحب. يقول شوبنهاور أن *" المرأة تريد أن تكون آخر امرأة في حياة من تحب، والرجل يريد أن يكون أول رجل في حياة من يحب."* وهو لا يدري أهي أم لأطفال أو عاشقة مجنونة أو أنها "امرأة حمقاء" كما قال نزار قباني.

ظل يبحث في كل أرجاء الجامعة، كـ"مجانين إفريقيا". فلم يصادف في طريقه سوى بعض الفتيات قليلات الجمال، وطلبة تائهين في مدرجات فارغة. فدفعته حرقة الحب إلى التداعي بأنه طالب جديد.

فجرب أن يقتحم أقساما مختلفة تحت ذريعة أنه تأخر عن الحصة، وأنه لا يعلم في أي مدرج من المدرجات يجب عليه أن يتواجد.

دخل صدفة قسم "الجغرافيا" وهو يتصبب عرقا. فهم بسؤال الأستاذ، مع أنه لا يوجه نظره شطره، بل يتفحص بنظراته الثاقبة جميع الصفوف، ليرى إذا ما كانت "رانيا" تجلس مرتاحة كحديقة في أوج زينتها، كما قال درويش.

- عفوا أستاذ، هل هذا قسم الفلسفة؟

يضحك الطلبة جميعهم بسخرية؛ إلا فتاة كانت تجلس في المقعد الأول. كانت إحدى زميلات موحا في المرحلة الثانوية. اسمها فاطمة الزهراء. كانت تعرف أنه يمزح. وأن خطته هاته مكشوفة. يتبناها الطلبة عند بداية السنة الدراسية لكي يثيروا انتباه الفتيات، فيخلقوا بذلك فرصة للحديث معهن خارج الفصل. فاستغربت له واستدارت وكأنها لا تعرفه.

ابتسم أستاذ الجغرافيا وغرق في ابتسامته، كأنه لم يبتسم منذ الحرب العالمية الأولى. رجل خمسيني، قصير القامة، يرتدي بذلة سوداء متناسقة وربطة عنق تكاد تحبس أنفاسه. كان الشيب قد سيطر على شعره الذي بدأ يتلاشى هو الآخر. وحين غزا الهدوء

الفصل، وكف الطلبة عن الحركة، وقف الأستاذ، بالرغم من أن وقوفه لم يغير من قامته شيئا فسأل موحا:

- أهلا، ما اسمك يا فتى؟
- موحا

تفجر الطلبة ضحكا من جديد. إلا أن الأستاذ نهرهم:

- إنه يقول إن اسمه موحا وهي ليست دعابة؟ فماذا يضحككم؟

عاد الصمت من جديد. تقدم يا موحا. ما خطبك؟

- أستسمح على الازعاج يا دكتور. حسبت أنه قسم الفلسفة..
- اسمع يا موحا، يجب أن تعود أدراجك إلى وسط الجامعة. هناك ستجد لوحة واضحة المعالم. سترشدك لا محال إلى قسم الفلسفة.
- شكرا أستاذ.

يهم موحا بالانصراف فيستوقفه الدكتور:

- عفوا يا موحا ... هلا ألقيت نظرة أخيرة على طلبتي، ربما تلتقي أحدهم في يوم من الأيام، فتأنبه على سخريته من اسمك..
- يضحك موحا ساخرا ثم يردف:
- شكرا يا أستاذ. إلا أنني لا أجد داعيا لذلك. الطلبة طلبتك. والأجدر بتأنيبهم هو أنت وليس أنا. أنا فقط عابر سبيل. أنت من يجب أن تشرح لهم أنه من العيب الضحك على إنسان بداعي اسم..

يعود موحا مخذولا، وقد فاته درس الفلسفة الوجودية. وقد كان عنوانه كالاتي: "ألبير كامو وفلسفة العبث"، كما أنه لم يعثر على الفتاة التي أفقدته صوابه. فلم يجد بدا من مشاركة همه مع زملائه في الحرم الجامعي، لعلهم يرشدونه إلى حل لمصيبته هاته.

كان موحا يتقاسم غرفة في الحي الجامعي مع ثلاثة من زملائه. إذ يدرس موسى الفيزياء، وهو شاب أنيق، منضبط، يمضي جل وقته في القراءة والتحضير للامتحانات. وما يميزه هو أنه كان يجيد الطبخ وإعداد الشاي بالنعناع.

بينما كان علي طالب علم الاجتماع. وهو من أصل أمازيغي. كان يحب "بيير بورديو" ويقرأ مؤلفاته باستمرار. وكان أكثر زملائه معاناة، فهو لم يستفد من منحة دراسية أو دعم أحدهم. سنده الوحيد هي أمه. هي التي تعينه في دفع مصاريف الحي الجامعي واقتناء الكتب وما إلى ذلك من الحاجيات الأساسية. كان الشاب صبورا.

أما عيسى، فكان طالب إعلام. ويطمح أن يصبح صحفيا مميزا، وأن يأسس مجلة أسبوعية أدبية، تعنى بترجمة النصوص الأدبية القديمة من اللغات الأجنبية، كالفرنسية والانجليزية والصينية إلى العربية، ليقدمها إلى القارئ في حلة جديدة وبنفس شبابي معاصر وأسلوب نقدي راق. فيعيد الاعتبار للغته الأم؛ لغة القرآن الكريم.

في المساء، عند غروب الشمس وخروج الموظفين من العمل والعاملين من المعامل والمصانع؛ في خضم هذه الفوضى التي تملأ الشوارع والأزقة وهذه الزحمة في وسط المدينة وفي هامشها؛ حيث تتداخل أصوات المحركات مع أصوات الفرامل؛ وتختلط رائحة البنزين بروائح البخور والعطور المنبعثة من المحلات التجارية؛ يعود موحا، ورأسه متكئ على صدره، كمن يريد أن يعترف بذنب أو خطيئة، إلى الحي الجامعي، شاقا طريقه دون لف أو دوران، كأنه لا ينتمي إلى هذا العالم. أو كأنه سمع خبرا صعقه فغدا كالمسحور.

عندما وصل إلى الغرفة، كان زملاؤه منشغلون. يطالعون في صمت. حيث اتخذ كل واحد منهم زاوية من الغرفة التي تحويهم وأغراضهم بكل ما أوتيت من قوة. فهي ضيقة. تحسب في بادئ الأمر أنها زنزانة في سجن انفرادي. وأنهم سجناء محكوم عليهم بالسجن مدى الحياة.

كان علي يشتغل على عرض يجب أن يلقيه في صباح اليوم الموالي. وقد كان البحث تحت عنوان: *" الهيمنة الذكورية في العالم العربي بين الماضي والحاضر."* أما عيسى فكان يقرأ حوارا كان أن أجرته جريدة فرنسية مع كاتب خيال علمي فرنسي اسمه "برنار وربر". وعنوان المقال كالاتي:*" أحلم بتواصل مطلق.*

بحيث يعبر الكاتب عن رغبته في تحقق تواصل كلي ومطلق بين الكائنات الحية والإنسان وبين الإنسان والإنسان. وذلك دون الحاجة إلى استعمال وسيلة تواصل سواء كانت لغوية أو غير ذلك. ويضرب مثالا بـ"مملكة النمل" وهو عنوان أشهر رواياته وأكثرها مبيعا. بحيث أن النمل يتواصل في ما بينه وفقا لنظام جد متطور ولا مجال لمقارنته بالإنسان أو "المملكة البشرية". يقول الفيلسوف، على سبيل المثال، أن بعض الأزواج، وهم مرتبطون لعشرات السنين، يفشلون في تحقيق تواصل معقول وجدي. وبالرغم من تبادلهم عبارة "أحبك"،

على سبيل المثال، فهم لا يحققون بذلك أدنى تواصل فعلي ولا يبذلون جهدا كبيرا في عملية فهم وتفهم بعضهم البعض.

من جهته، كان موسى غارقا في محاولة فهم نظرية الانفجار العظيم. ويدعي أنه اكتشف هفوة في النظرية كفيلة بقلب موازين فيزياء الكم ودحض كل الآراء التي تزعم أن الكون هو نتيجة انفجار ضخم.

- "ماذا تقولون في الحب؟" يباغتهم موحا بعد أن قبع في سريره البارد.
- يبدو أن صديقنا وقع في كمين إحداهن. يقول موسى وهو يقهقه.

تكأكأ الثلاثة على موحا وهم يمازحونه: " تكلم؛ من هذه الجميلة؟ ما اسمها؟ أهي فيلسوفة؟ أهي شاعرة؟ ربما نادلة؟

- ما تقولون في الحب؟ أجيبوني بدون أفعال وأقوال صبيانية.
- أنا لا أومن بالحب. لا أومن به. يردد موسى مضيفا: أو لنقل إنه شعور نسبي بالسعادة. وأنا لا أومن بالسعادة فهي في حد ذاتها شعور نسبي بالكمال والكمال هو الآخر نسبي، إذ الكمال لله الواحد الأحد.

- أما أنا فدعني أقول لك، أن الحب مجرد سوء تفاهم بين الرجل والمرأة. فالرجل يحتاج إلى المواساة ولا يجد سبيلا إلى ذلك سوى التعلق الميكانيكي بامرأة تهتم به كالرضيع. ولعل هذا ما يفسر حبنا لأمهاتنا. ومن ثم للنساء بصفة عامة. أما المرأة فتتخذ من الحب ذريعة لكي تكسب اهتمام الرجل وتتباهى برجولته ومكانته. وهذا في نظري تناقض صارخ في قاموس "الحب". الحب، يقول " محمود درويش: " *هو ألا أعزلك عن العالم... الحب هو أن أتركك بالزحام... وأعلم تماماً أن قلبك لي.*" و " يقول أيضا: " *الحب هو أن أعاتبك وتعاتبني على أصغر الأخطاء، هو أن أسامحك وأن تسامحني على أكبر الأخطاء."* ويقول أيضا: *" لا أريد من الحب غير البداية"* ويقول ... يقاطعه موسى:
- يا أخي قل لنا أنت ما تود أن تقوله. نحن نعرف ما قال "درويش" و" نزار قباني" و" بدولي"...
- دعني فقط أضيف هذا البيت؛ يقول: *" الحب كذبتنا الصادقة"؛* أليس درويش صادقا فيما قال؟ بلى. الحب يا أخي لا يفرض. الحب حرية وأنتم تعلمون معنى الحرية. ليس الحب معادلة رياضية تقوم على مبدأ الاستنباط. إنه صعقة

كهربائية قوية كأقوى زلزال في الكون. إنه مصيبة تسلطها المشاعر على أصحاب القلوب الضعيفة. وأصحاب المشاعر الرقيقة. نعم. كل هذا هو الحب. لكنه سلطان. من منا يقوى على مجاراته فهو تيار جارف يأتي على الحي والميت فينا. يذبلنا كورود ربيع ولدت متأخرا في الخريف أو في صيف حزيران أو في صحراء أرزونا. *" الهوى سلطان"* كما قال "جورج وسوف". والأكثر من ذلك، ففي الحب، لا الرجل ولا المرأة يقوى على قول الحقيقة. يعانق أحدهم الآخر، فيبسط الثاني ذراعيه ويشعل نارا باردة في حضنه فيتعانقان. أهذا هو الحب؟ يهمس أحدهم في أذن الآخر: " أحبك". وماهي إلا دقائق حتى يمضي كل واحد منهما إلى حال سبيله. أهذا هو الحب؟ ما الحب في نظر الجارية؟ المتحرية؟ الهيفاء؟ الممشوقة؟ الدعجاء؟ الدعجاء؟ النجلاء؟ المقصد؟ الغانية؟ العيطبول؟ المملودة؟ اللدنة؟ ما الحب في نظر المرأة الفاتنة الجميلة التي هي في غنى عن أمداح المتهافتين من العشاق المولوعون بالجمال؟ المسحورون بالعيون؟ ما الحب، يا أحبابي في نظر الباهرة؟ هل هي في حاجة إلى شعر المتنبي أو امرؤ القيس أو درويش لكي تعيش؟ أو شعر دنقل

لكيلا تفقد الأمل؟ ألم يقل المتنبي: " *هامَ الفُؤادُ بِأَعرابِيَّةٍ سَكَنَت بَيتًا مِنَ القَلبِ لَم تَمدُد لَهُ طُنُبا"*؛ ثم ألم يقل "خليل جبران":

*" أَلْقَى الْجَمَالُ عَلَيْكَ آيَةِ سَحَرِهِ**** فَغَدَوْتُ مَا شَاءَ الْجَمَالُ حَبِيبَا*

*حَتَّى الهموم سَمَّتْ إِلَيْكَ بِوَدِّهَا *** مَنْ كَانَ يَحْسَبُ للهموم قُلُوبًا"* ؟

ثم ما الحب في نظر هذه المرأة التي لم يؤتها الله نصيبا من الجمال؟ كيف ينظر الرجل إلى المرتبلة؟ السوداء؟ المحمقة؟ الشموع اللعوب؟ من سيخبر العمياء أنها جميلة؟ المرآة؟ ومن سيعترف للمشلولة بالحب ويتودد لها؟ فارس الأحلام في الأحلام؟ من من دون هؤلاء الرعاع الغوغاء؟ المكبوتون، الذكوريون؟ مهلا... عذرا سيدتي المذكار. من من غيرها؟ تلك الحيوانات الناطقة التي لا تفكر سوى في إشباع غرائزها الحيوانية؟ أجيبوني أنتم إذا. يختم على وقد جف اللعاب من فمه وبدأ العرق يغزو جبينه.

- أما أنا، فلا أحيا إلا بالحب. وأنا على عكس ما تظنون، لست بحاجة لأن يبادلني أحدهم نفس الشعور. يكفي أن أنجح في التعبير عنه بصدق. يكفي أن تكون كلماتي متناسقة منسجمة عميقة بطريقة لا تجعل ما أقول محط شك إحداهن. وأنا على عكس الكثيرين، أتقن الانتظار. يقول

درويش: " *فإن أقبلت بعد موعدها، فانتظرها، وإن أقبلت قبل موعدها فانتظرها.*" يجيب عيسى برومانسية غير معهودة ويستدير ناحية موحا فيسأله:

- وأنت ماذا تقول في الحب؟
- على كل حال، يبدو أنني مجبر على تعلم الانتظار. لأنني لا أعلم حقيقة أ رأيتها أم أنها ليست إلا طيفا. ما جعلني أتوهم رؤية خيال امرأة سكنتني فجأة. بلا مبالاة أشعلت في جسدها النار بلطف فأحرقتني بهدوء حتى ماتت داخلي.
- ما اسمها؟ يسأل عيسى.
- لا أعلم.
- وما هو تخصصها؟
- لا أعرف حتى اسمها فكيف لي أن أعرف تخصصها؟
- في أي اتجاه ذهبت حين رأيتها؟
- في مدخل الجامعة، لمحتها. وبعد برهة اختفت كأنها جنية أو ومضة.
- إذا كانت تدرس بالجامعة، ستلاقيها ستلاقيها يجيب على وهو يحاول طمأنة صديقه.

مرت الأيام تباعا. يستيقظ موحا وهمه الوحيد هو ملاقاة الفتاة. والتي سماها القمر لشدة جمالها وطول غيابها. يذهب إلى الجامعة وهو منكسر كأرملة خرج زوجها إلى الحرب فلم يعد. أو كشيخ أناخ به البلاء والذل. يجلس في الصف الخلفي من القسم؛ يتحاشى الطلبة ويغض بصره عن كل فتاة جميلة. وعن كل جملة تصف الجمال أو الحسن أو السعادة والطمأنينة. لم يعد مطمئنا. لقد غدا شريدا كطفل صغير يتابع طائرة في الجو وهي تختفي تدريجيا إلى أن تتوارى عن الأنظار. ويظل يحدق في مسارها إلى أن يتشرذم وينتشر في السماء فيبعثرها ويعبث بصفائها وزرقتها.

أضحى موحا حاضرا غائبا. حتى أن أستاذ المنطق استغرب لحاله. إذ أنه عهده نشطا، متحمسا للسؤال والمشاركة. فأبى إلا أن يسأله.

- موحا؟ أ أنت حاضر أم غائب؟
- أنا غائب.
- بلى أنت حاضر.
- وما أدراك؟
- إنك هنا وأراك.

ذهل الأستاذ من رد فعل الطالب فغير السؤال.

- أنت إذا لا تبالي بوجودي وزملائك؟
- وهل يبالي أحد بوجودي؟

يستدير الأستاذ شطر الطلبة فيسألهم:

- ألا تبالون بوجود زميلكم؟

يرد الطلبة بشكل جماعي كأطفال المدرسة الابتدائية:

- بلى يا أستاذ.
- أسمعت؟ إنهم يقولون إنهم يبالون بوجودك...
- إنهم يكذبون...

إنه يقول إنكم تكذبون.

يقف شاب أنيق يجلس في المقعد الأول فيرد على موحا بعصبية:

- لقد اختار زميلنا الجلوس وحده. والأكثر من ذلك أنه لا يرد السلام.

يجيب الأستاذ:

- أصحيح ما يقوله زميلك؟

يرفع موحا رأسه، فيصوبه ناحية الطالب بلطف. ويجيب:

- لم يسبق لي أن رأيت هذا الشاب. وهو الآن يهاجمني ويقول قولا مزيفا.

ينتفض الطالب من مقعده مرة أخرى كمحام في قاعة محكمة:

- من البديهي ألا تراني، فأنت تمشي دائما منكبا على وجهك وكأنك تنقب على الزئبق أو على كنز ثمين.

يضحك الطلبة كلكهم في آن واحد. ثم تتكلم فتاة عشرينية فتقول:

- يبدو أن زميلنا يمر من أزمة نفسية حادة. ومن واجبنا أن نعتني به ونرعاه حتى تنقشع أزمته فيعود لنا باسما مبتسما.

يعاود موحا رفع رأسه والغضب يتسرب من مقلتيه السوداوين ويرد:

- باسما مبتسما؟ يبدو لي أنك أنت من تمرين بأزمة نفسية. أما أنا فبخير الحمد لله.

يعود الأستاذ ببطيء إلى المكتب وهو حائر. وقد انتشر في جسمه عرق خفيف كالمزن واضمحل شارباه. ففتح قنينة ماء معدني. أخذ منها جرعتين. أغلقها. ثم تابع الدرس.

انتهت الحصة. خرج الأستاذ فتبعه الطلبة بحماس وكأنهم كانوا يتنظرون هذه اللحظة منذ الأزل. أمام الباب، كان الطالبان اللذان دخلا في نقاش مع موحا، ينتظرانه. دفع موحا الباب وخرج كثور غاضب دون أن يكترث لوجودهما. قصد مقهى الجامعة. طلب فنجان قهوة وشربه دفعة واحدة. خطر بباله أن يدخن. اقتنى سيجارة فاستهلكها ربما قبل أن يشعلها. أشعل الثانية ثم الثالثة والرابعة. دون جدوى. لايزال منزعجا مضطربا كأمواج بحر تطلب النجدة من قمر غاضب وتتوسل إليه أن يكف عن تعذيبها. كان يبحث عن طريقة لتهدئة أعصابه. فلا القهوة ولا السجائر أفلحا في ذلك. يقول كرستوفر مورلي: "*الرجل الذي لم يغضب امرأة في حياته هو رجل فاشل*". لكن، أن تغضبك امرأة لا تعرفها، بل لم تلتقيها يوما، أو لنقل إنك لم ترها وأنها ليست إلا وهما؛ فذلك قمة العبث. بل وقمة الفشل العاطفي. أيضا. أ ليس كذلك؟

لقد كان مزاجه معكرا كجندي عاد من الحرب بعد مدة، فوجد في دربه قوما آخرين لا يعرفهم، وعمرانا جديدا لم يعهده في شبابه، ووجوها غريبة تتطلع إليه بغرابة، وألسنا تغتابه في غيبته.

لقد عاش موحا في الريف وحيدا. تائها تارة بين تفاصيل التلال ورائحة التراب المبلل، وتارة أخرى، بين أشجار التوت البري. فلا أصدقاء هنا

ليلعب معهم لعبة "الغميضة"، ولا إخوة يتنازع معهم في الصباح ليصالحهم في المساء وكأن شيئا لم يقع.

كان سليمان صغيرا ولا يسعه الابتعاد كثيرا عن حضن أمه. ولا يقوى حتى على الكلام. يكتفي فقط بترديد كلمتين أو ثلاثة. يخرجهم بشق الأنفس. فكان ينطق "مي" وهي تعني "ماما" حين ينطقها أطفال المدن. وكلمة "با" والتي تعني بدورها "بابا" أو "أبي". وكلمة "زوزو" وكان يقصد بها " الزبير".

في المقابل، كان موحا كثير الهم والأسى. فكان لا يقوى على النظر في وجه أخيه الزبير. في طفولته المبكرة، كان يستهزئ به ويسخر منه. مع مرور الوقت، حين تفهم وضع أخيه وحالته المزرية، وذاق من عذابه، ألمه وتألمه في الليالي، بكاؤه المستمر وعجزه التام عن الكلام، لم يعد موحا ذلك الفتى العنيد. فأصبح عوض الضحك على حال أخيه يبكي على نفسه، هو الذي لا طاقة له برؤية الضعف والهوان في نظرات ابن أمه وأبيه وهو يصارع القدر، يتدمر من قسوة الإعاقة وموت الأمل في نظراته المنكسرة، المبعثرة.

لقد كان لهذا الوضع أثرا كبيرا على شخصية موحا. فزادته الروايات والكتب حزنا على حزن. إلا أنه كان يجد فيها ملجأ وفي شخصياتها

قدوة وفي أمكنتها كينونته وكيانه. فكان كلما اكتمل القمر، خرج إلى الجبل وقضى ساعة أو ساعتان في التأمل والتدبر.

أمام هذه اللوحة الفنية العظيمة: سكون الليل؛ موسيقى الحشرات؛ غياب البشر؛ حلول الطبيعة في الطبيعة؛ وحدة الوجود ووحدة المتأمل؛ الشعور بالغربة؛ هبوب الريح برشاقة؛ مرور الخفافيش في لمح البصر؛ أمام هذه اللوحة، أحس موحا أن روحا حية، غريبة تتردد عليه دون أن تستقر في وجدانه وكأنها تلميحات سماوية أو أحلام يقظة. كلما خرج إلى الطبيعة راودته مشاعر لا طاقة له بها. فتأتي تارة على هيئة بركان يهدد بالانفجار، يغلي غليانا، وكأنه أصيب بجرح عميق أو خيانة رحيمة؛ كأنه يريد أن يلفظ جثة رجل حكيم حتى يدفن في بستان أو خميلة خاوية، فارغة تفتقر إلى البشر.

كما تأتيه في بعض الأحيان على هيئة حنين غابر في الزمكان. ترى كيف يحن المرء إلى ماض عاش فيه مخذولا، دخيلا، منبوذا؟ يقول أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين أن الإنسان يحن إلى أفضل لحظات حياته، أو إلى طفولته. في الطفولة سعادة مرفوع عنها القلم. إلا أن موحا لا يملك من طفولته سوى ذكرى عديمة الطعم. قاسية. وفي كثير من الأحيان تهاجمه مشاعر الحب مع أنه لم يكن يعرف معنى أن تحب امرأة لا تعرفها ولا تعرفك.

حين يدقق النظر في القمر، وهو مكتمل يتباهى بجماله ونوره الساطع؛ يتحرك بمهل كأنه يخشى أن يدوس على نجومه؛ فيتحول القمر فجأة إلى امرأة فاتنة الجمال، واضحة القسمات، رعبوبة، وكأنها عارضة أزياء روسية، تتباهى بزينتها وأناقتها داخل فستان وردي اللون يتماشى ونعومتها. ليكتشف بعد حين أن هذه المشاعر هي ما يسمى بالإلهام" أو الروح الشاعرية.

الفيلسوف الشاعر

في كلية الآداب، اعتاد أساتذة اللغة العربية تنظيم أمسيات أدبية وشعرية بغية منح الطلبة فرصة المشاركة في فعاليتها وإبراز مواهبهم في المسرح والخطابة والفنون التشكيلية. من أجل تحقيق هذه الغاية النبيلة، كانت الكلية تعقد شراكات مع مؤسسات أخرى تهتم بنفس المواضيع وتتبنى نفس التوجهات الإبداعية. كـ "المعاهد الفرنسية" و "المعاهد الاسبانية" و "وزارة الثقافة والشباب" و"مجموعة من المنظمات غير الحكومية" والجمعيات الثقافية.

اقترح عميد كلية الآداب بتنسيق مع رئيس الجامعة، الإعلان عن مجموعة من الجوائز الأدبية والإبداعية لمكافئة المواهب في مختلف مجالات الإبداع. وكان من ضمن هذه المسابقات، مسابقة للشعر. والتي تخول للفائز فرصة قضاء أسبوع في عاصمة عربية من اختياره؛ إذ تم اقتراح "بغداد" و "القاهرة" و "الخرطوم" و "بيروت" و " دمشق". حيث تتكلف الجامعة بتسديد كل مستحقات الرحلة والإقامة.

حين علم موحا بموضوع هذه المسابقة، عزم على المشاركة. لقد كان في حاجة ماسة إلى رحلة بعيدة، ينسى فيها ما كابده من صعاب وما عاناه من ضيق وغربة نفسية. وقد كانت هذه فرصته التي لا تعوض. لكي ينتج قصيدة بليغة، بعد كل هذه السنوات من المطالعة والقراءة. وبعد كل هذه الليالي التي قضاها في التأمل والتدبر في عظمة الخلق والخالق. فكان لا بد أن يدمج كل هذه المشاعر والتجارب في قصيدة ربما تخول له الفوز بالجائزة والسفر إلى حيث يشاء.

بعد شهر، كان موحا قد انتهى من كتابة قصيدته وحان الوقت لأن يشاركها مع زملائه في الغرفة لكي يقيمونها، ويروا مدى قابلية فوزه في المسابقة، قبل إرسالها إلى اللجنة المنظمة، مع أن رأيهم لا يسمن ولا يغني من جوع.

- أعتقد أنني نظمت شعرا. يقول موحا بتردد.
- وأخيرا... كدت أن تصاب بالجنون، فتغدو ك "ادريس جماع". يجيب عيسى.
- ومن يكون هذا الجماع؟
- أ لا تعرف الشاعر المجنون؟
- لا. وهل المجانين ينظمون الشعر؟

- أ تدري ماذا قال عنه عباس محمود العقاد حين علم بأنه في مستشفى الأمراض العقلية؟
- ماذا عساه يقول؟
- قال: " *هذا مكانه دون أدنى شك، لأن من يُشعر بهذه العبقرية، فهو مجنون (كمجنون ليلى)، لعمري، إن هذا الكلام لا يقوله عاقل*!"
- وماذا قال جماع؟
- قال، وهو يتغزل بامرأة جميلة:

" أعلى الجمال تغار منا؟

ماذا علينا إذا نظرنا؟

هي نظرة تنسي الوقار

وتسعد الروح المعنَّى

دنياي أنت وفرحتي

ومنى الفؤاد إذا تمنى

أنت السماء بدت لنا

واستعصمت بالبعد عنا."

- والله إنه مجنون.
- هيا... أشعر...

- عنوان القصيدة كالاتي: "غائبة".

"غائبة..."

بعنف غائبة أنت. إنك تجيدين الغياب؛ التغيب؛ الغيبة؛ الغربة؛ الاستغراب في وطنك وفي الغرب.

لا أستغرب أنا؛ أنا أعرفك، أعرف أكثر منك بكثير كنه غربتك وغرورك.

أعرف إنه عندما تتهاوي ذرات طاقتك النووية، تتلاشى، تنصهر تحت تأثير الهوى، تنعدم تدريجيا... تحت تأثير الجاذبية، تستغيثين بالغيث وأنت تغنين بحزن وضجر كملك الغجر... أو كغريق عشق البحر فتوغل إليه حتى الموت.

أنت في ذاتك ولذاتك طاقة عظيمة، ينحني لها التيار وتتحسر عليها القلوب والأعمار،

ولا تعرفين سر طاقتك وتتحسسينه بعقلانية وديمقراطية...أنت ديكتاتورية.

في نظراتك الأكثر عفوية أنت ديكتاتورية. في حركاتك التلقائية، ديكتاتورية. في مشيتك والتفاتتك وابتسامتك التي تقتل ضحكتك، ديكتاتورية.

أخبريني، من فضلك...

ما الجمال وأنت تسلكين طريقا وعرا، لا يلائم رقتك ولا يتماشى ونعومة قدميك الحريريتين؟

ما الجمال؟ نقطة في جبل جاء للتفتيش عنها جبان أعمى على جواد متعجرف.

اجلبي لي من الماء كأسا وبسملي فيه حتى أشفى من داء الحب وأسقى من لغتك رحيق نحل و" أغفى"...

أغفو ثم أعاود الكرة حتى الموت.

أموت إذ كنت كجبان أعمى، لم يجد للجمال طريقا غير وعر في جبل "تاغيا" الغربية بناسها...

طردت منها كستيفن"، حين تكلم عنه بهندسة "المنفلوطي" وهو يكلم نفسه بينما تتزين" ماجدولين" للقاء أرستقراطيين أغبياء...

إني أناديك...

أناديك كغريق هاجمته سيناريوهات الموت اللاإرادي وهو يحتضر.

ولا أتقن النداء، سئمته، بل، لم أمارسه يوما،

" سيزيفي" أنا و ما أنادي أحدا لمؤازرتي فالحاكم علي قوة عظمى...

وما هذه القوة إلا أشعة عيونك النجلاء تطلق رماحها مباشرة على فؤادي في العراء.

ولا تخشى أحدا وكأنها فعلا قوة عسكرية عظمى، أو مسدس مظلوم مصوب نحو عدو ظالم.

ما هذا الارتجال في تنفيذ عقوبة الإعدام شنقا بالنظرات؟

ما هذا الابتزاز العفوي المتجذر في شرايين الحب عينه؟

أي حب هذا؟ أي انفعال؟ أي ثورة؟

انتشليني من قسوة البرد الذي يعصف بي في سلام وأنا في غير سلام.

وجهي نظراتك شطره، لعله يخجل منك، فأنا لست جديرا باحترام الرياح.

تهب حيث سكوني وتسألني بسخرية " بالزاك" وعبثية "كامو" وتقول:

كم خفيف أنت ولا تزن ذرة وكأنك ريشة طائر مهاجر سقطت في غفلة منه.

تعاتبني الرياح وتقول:

كم خفيف أنت ولا تزن ذرة وكأنك ريشة طائر مهاجر سقطت في غفلة منه؟

اعذريني، فأنا في حبي ديكتاتوري لست ككل ديكتاتوري من أبناء جيلي، من أبناء عالمي.

ردي على وقولي: كيف أجيبها وهي تعاتبني:

كم خفيف أنت ولا تزن ذرة وكأنك ريشة طائر مهاجر سقطت في غفلة منه؟

كيف أجاريها؟ كيف أعاقبها؟

كيف أجيب رياحا تسير بسرعة البرق ولا تتريث ولا تنتظر ردي ولا

ترد لي ابتسامتي ردا؟

كيف أجاريها؟ أعاتبها؟

تدخلي بسرعة فأنا بطيء، عاتبيها مكاني وانتقمي لي.

بطيء لست أبالي بحياة فيها أنت غائبة.

أو لا تنتشليني....

قلت لا تنتشليني...

وانتظري، فأنا لست مسرعا أنا بطيء.

انتظريني أو لا تفعليني.

أو أحرقيني... أحرقيني كجثة رجل ديوث لا يستحق الحياة.

أنا لك مدين إن فعلت ما أمرت به للتو.

أحرقيني أيا سيدتي، فما أنا فاهم ولا أنت بمتفهمة لما أقول،

فأنت لا تعرفينني.

أقسم لك في الحين وبالله بأنك لا تعرفينني.

أقسم إنني وبكامل ما أوتيك من قوة.. غريب عنك.

وأعرف تمام المعرفة معنى العقل وكثيرون من مهم لا يعرفون للعقل معنى.

إني أعرف المعنى ... وأكلمك من دون قلم أو ريشة

أو قصة شاعر أبى أن يكون في عهد الجاهلية شاعرا.

قفي مكانك أو تراجعي حتى أعد حصاني للهروب، منك... من جبروتك.

تأملي في نجمة أو كوكب بعيد بعد الزهرة أو المشتري وامنحيني بلامبالاة هنيهة لأختلس النظر إلى عيونك وهي شاردة...

تظاهري بالنسيان أو تناسيني جذريا كي أنقذ نفسي من طاقتك النووية...

إني فقط خائف عليك كثيرا.. هذا كل شيء يا سيدتي في الدنيا.

وإن في الآخرة التقيتك لطلبت الله باكيا أن يحرمني من الجنة إن كانت جنتك

وأن يقحمني في النار إقحاما، أن يعذبني عذابا وأنا سعيد ولا أعيش سجينا في جنتك الأبدية،

أقسم أنه إن كان ذلك كذلك لفعلت ما قلت ولعل الله فيما قلت شاهد،

عائد إليك في زمن آخر...

سأعود أعدك يا عود العرعار إني فيما قلت لمتأكد ولن أخذلك... أ أسألك؟

هل انتهى كل شيء بيننا؟ هذا الحب الذي انتهى قبل أن يبدأ؟

هل هو هذيان أم هوة أم هفوتي في الهوى؟

لا تهديني قبلة الوداع. خذي قبلتك وهاتفيني بعد الظهيرة.

هاتفيني... سأقلك على ظهر هدهد إلى" سطوكهولم" أو" هولندا"...

هناك. يمكن أن أهتف أمام هؤلاء الغرباء باسمك...دون هوادة.

فأبناء قبيلتي يرون في حبي لك عداوة هابيل لأخيه.

أبناءها يهود يهمسون في غيابي همسا أهملته حين عدت إليهم في الشتاء أنا والمهانة على صهوة حصان مستهتر.

وجدت في قبيلتي كاهنا وفي الكهف هيامي وفي الغار لهب هوانا يحتضر...

هاتفيني فقط... نهاجر بعيدا عن الرعاع والغوغاء إلى هاواي أو الهملايا..

وأهديني قبلة الحياة وأهمليني حينها إن شئت.

وألقي بهواي الموهوم في عرض المحيط الهادي.

أو اتركيني قبلها إن قبل قلبك أن أنفض عليك جملة حالي.

وانهالي على بالمديح أو الهجاء أيا نجلاء العيون والمعاني.

فصل الربيع

انقشع الشتاء. وقد ترك في وجدان الأسرة جرحا غائرا ومأساة بلا دين ولا ملة. إذ فقدت خروفا ودفعت بكل الحطم المخزن في موقد بارد. جائع. واستنفذت كل الدقيق والقمح والشاي والسكر والزيت؛ حتى الملح الرخيصة نفذت. بل حتى الحمار لم يسلم من مرض خطير أصابه، فأودى بحياته. فغدا الريف كجزيرة نائية حيث لا طير يطير ولا وحش يسير.

لحسن حظ الأسرة أن "با العربي" كان ينعم عليها من حين إلى آخر بالطحين والشاي والسكر والدواء؛ وكأنه رسول أرسله لها الله، ليسهر على حياة أفرادها البؤساء، الأشقياء، الفقراء، المتعبين، وكأنهم ارتكبوا معصية أو خطيئة لا تغفر. سيزيفيون.

أصبح البيت كمستنقع، أو كبقايا حرب أهلية. فلا النوافذ أفلحت في ردع تيارات المطر الغزير المدفوع برياح شديدة؛ ولا سقف القصدير المهترئ استطاع تحمل غضب السماء والبرد والثلج والمطر معا وفي آن واحد.

انقطع سليمان عن المدرسة. مرغما. فالفيضانات شوهت مورفولوجية الريف، فغيرت المجاري اتجاهاتها وغدت تحت تأثير سرعة وقوة المياه التائهة، عشوائية تسير في كل الأنحاء وتصب في كل الأركان. حتى المدرسة لم تسلم هي الأخرى من قسوة الشتاء، فلا رمزيتها، حروفها أو تاريخها المكتوب منذ شهرين في أعلى يمين السبورة، حالوا دون تخريبها. إذ تكدس الوحل أمام الباب حتى أغرقه. وفتحت النوافذ من تلقاء نفسها مستسلمة لجبروت الرياح التي كسرت زجاجها، وعبثت بشكلها وزينتها. فلم تعد للألوان قيمة أو بعدا جماليا، في آخر المطاف.

كان شتاء هذا العام قاسيا على غير عادته؛ حتى جنون موحا سكن. فلزم البيت وعاد إلى كتبه المبللة، فتصالح معها، وعاد له حماسه وهدأ روعه. كأن كل هذا الشتاء جاء ليعيد له صوابه ويجرده من جنونه وأوهامه الطفولية.

أما الزبير، فلا حول ولا قوة له. ما زاده الشتاء سوى ضعفا وهوانا ومرضا. فأمه التي كانت تهتم به وترعاه، أصيبت بنزلة برد حادة أقعدتها الفراش لمدة طويلة. فلم تجد إلا سليمان التائه والمنهزم هو الآخر، ليطعمها ويغطيها ويواسيها في حزنها ومرضها.

فيبكي معها إن بكت، وينفذ أوامرها وطلباتها بلا كسل أو ملل أو عقوق. يغطيها بغطائه إن ارتعشت، ويظل هو يترنح ويئن، كما لو أنه تناول سما قاتلا أو علبة سمك أكل عليها الدهر وشرب. كان ما إن يسمع أنين الزبير، حتى يكف هو عن الأنين، فيهرع نحوه ليتفقده وكأنه ممرض أو طبيب حراسة.

وما إن ينتهي من مهمته، حتى يسمع موحا وهو يضحك ضحكا هستيريا كالمجنون. فيكلمه بخشونة وجرأة معلم أو فقيه أو أب حكيم. وما إن يعود إلى فراشه البارد حتى تتهاوى عليه من كل جانب أفكار جهنمية سوداء وأسئلة غزيرة تفتقر إلى المعنى.

يفكر في مستقبله ومستقبل أسرته. يفكر في الموت. في الحياة. في حياة الأرستقراطيين، البورجوازيين، سكان الأحياء الراقية، والفيلات المطلة على الساحل. يظل على هذا الحال، حتى إنه يستحيي أن يضحك على طريقة موحا. وما كان يفقده صوابه هو هذه العبارة التي تتحرك في عقله كالجمرة أو كالسهم:

" أ تعلم أنني سأسافر إلى إيطاليا هذا الصيف رفقة عمي. والأكثر من ذلك سأعمل معه في مزرعة كبيرة وسأجني الكثير من المال".

جاء الصباح، وكان أول أيام الربيع. ما أجمل الربيع! إنه بمثابة مضاد حيوي تتناوله الطبيعة فتستعيد عافيتها. دفئها.

تتنازل عن أمراض الزكام والانفلونزا. ترفع الصقيع من على أغصان اللوز المزهرة. تطلق العنان للعيون لتشق طريقها بمهل وعناية. تغفر لبذور جرفتها التيارات إلى أرض غير أرضها، حيث نبتت وأزهرت وكبرت. تعقد اتفاقية صلح مع القمر فتحرره مؤقتا. تجتمع بالشمس في أعالي جبال "توبقال" في المرحلة الأولى وفي أعلى قمم "إفرفست" في المرحلة الثانية وفي المحيط الهادي في المرحلة الثالثة، فتسلمها السلطة بتردد وكأنها تخشى ألا تنوب عليها بالصرامة والدقة نفسيهما.

وحين تتولى الشمس السلطة، تنقلب موازين الطبيعة، وتستسلم هي التي كانت متكبرة، متسلطة، عنيدة، كطفل يرفض التنازل عن لعبته لصالح أخته. تكشف على مفاتنها كامرأة ثلاثينية قسيمة. فيغشاها الدفء وينفذ الحنان إلى أعماقها الغائرة، فيوقظ مشاعرها الرقيقة، ويبث العشق في وجدانها إلى أن تتفجر زهورا.

في الهضاب تلد أزهار "الأستروميريا" الوردية، ذات القلم الأصفر البارد. في جوانب الوادي تضع بيض أزهار القرنفل الحمراء. على منحدرات الجبال تنشر أزهار " الأمارلس" الفتية. على قمم الجبال

تبث نبات "كاسر الحجر" بأزهاره البيضاء الخفيفة. في السفوح تكلف نبتة "الزعتر البري" بدخ العطر وتوزيعه في كل الأرجاء ونشره في كل الاتجاهات؛ كما أوكلت لها مهمة رعاية وعلاج الأزهار ضعيفة المناعة والسهر على حيويتها.

أما على جوانب الطرق المتشكلة حديثا نتيجة التيارات الجارفة، فقد زرعت "شقائق النعمان" وكأنها حرس ملكي يؤدي "سمفونية" "كسارة البندق" لـ " تشايكوفيسكي"، أو نشيد الربيع الوطني، كوسيلة للترحيب والمجاملة.

وها هي أشجار الزيزفون تجتاز بصعوبة فترة النقاهة. تستعيد خضرتها. تفتح زهيراتها للنحل. تفتح حضنها للعصافير لكي تضع بيضها بين أغصانها الملتوية؛ المتشابكة؛ المتعانقة.

وها هي أصناف من الطيور المهاجرة تصل إلى الحقول المجاورة، بألحانها الشذية وأنشوداتها البهية؛ فتملأ المكان حركة ونشاطا، بعد شهور من الصمت العدمي. وها هي السماء تعج بطائر "السنونو" السريع، وهو يلعب لعبة "الغميضة" محتميا تارة بالسحب القليلة المتشرذمة، وتارة أخرى بالفراغ.

وفيما استقرت المجاري القديمة منها والمتشكلة حديثا، أخذت المياه شكلا آخر أكثر عذوبة وصفاء؛ وأتاحت بفضل تدفقها البطيء والسلس، لمجموعة من الأسماك الملونة، التجوال بملكية، في قعر البرك الشروبة، المحاطة، هي الأخرى، بنبات الزنبق و "دوار الشمس"، وكأنها لوحة من لوحات "فان غوغ".

في المقابل، أرسلت السلطات مجموعة من العمال إلى الريف، بغية إصلاح وإعادة تأهيل المدرسة، بعد أمر من الوزارة الوصية. فحط العمال رحالهم بالقرب من المدرسة وجاء التلاميذ، بعد أن وصلهم الخبر، فاصطفوا فوق إحدى التلال القريبة وهم يتساءلون:

- سمعت أنهم سيبنون أقساما جديدة. يقول أحدهم.
- كان من الأجدر أن يساعدونا في بناء بيت صالح للعيش، عوض بناء قسم جديد. تقول إحداهن.
- ولم لا يرسلون فريقا من الأطباء إلى جميع أهالي القرية المتضررون جراء الشتاء؟
- يقول والدي أنه سمع في "الراديو" أخبارا عن أزمة اقتصادية عصفت بالبلد خلال الشتاء. وأنه يعاني من نقص شديد في الميزانية.

- هذا ما تدعيه الحكومات والإعلام دائما...

وما هي إلا أسابيع حتى عادت البهجة إلى الأسرة الحزينة، اليائسة.

عاد سليمان إلى المدرسة مرفوقا بكلبه "اسبواغ". بينما يستعد موحا للرجوع إلى مدرجات الجامعة، بعد أشهر من الشرود. عادت الابتسامة إلى عبد السلام. سلم وجه فاطمة من اليأس. أما الزبير فلم يزده الربيع سوى عجزا عن عجز. فهو غير قادر على الخروج إلى الطبيعة لرؤية الربيع. إنه يكره الربيع. كيف لا يفعل وعبير الأزهار يجتاح البيت من الباب كما من النوافذ:

يهاجمه نسيم الصباح وريح المساء الدافئ المعطر. تهاجمه سيمفونية الضفادع والحشرات. يهاجمه ضوء القمر. يهاجمه صياح الديك في الفجر. يهاجمه عطر الزعتر القادم من السفوح وعطر الياسمين، وردة أمه المفضلة وهي تتنفس عند الباب. تهاجمه رائحة التراب المبلل. كل شيء يهاجمه. حتى المشاعر تستفزه:

يضغط الغضب على قلبه. ينجر الحنين دماغه المشلول. يفترسه الحب الغائب. تعكر مزاجه فرحة الخراف وهي خارجة من الحظيرة بكل حرية، تتسابق نحو العشب الأخضر الطازج. يتغذى عليه الندم. تضحك عليه الحسرة. تتحسر عليه القوة. يقتات عليه الاحساس

بالضعف. يضعفه ضعف والدته. يوسوس له الشيطان. يشطب عليه التاريخ. تنساه الذاكرة. ينجر السعال رئتيه. يتسلى بلعابه الذباب. ينعته الذل بالمذلول. يصفه المجد بالمهزوم. يصفه الشلل بالكسول. يهزمه الملل. يمله اليأس. تكويه الوحدة. تغريه الأحلام. تغشاه العزلة. يحسده الحجر. يجره السرير من رجليه. يجلده الغطاء. يغطيه الوهم. يوهمه الليل بالفرج. يفسد الفجر أحلامه.

الإنسانية

في إحدى أيام الآحاد، حيث يقام بالقرية سوق أسبوعي، استيقظ عبد السلام مرفوقا بسليمان، ليساعده في جر إحدى الخراف المعدة للبيع. انطلقا عند الفجر، فلم يصلا إلا قبل الظهيرة بقليل. كان السوق يشارف على الانتهاء؛ إن لم يكن قد انتهى.. فسكان المناطق المجاورة مدمنون على الصباح والفجر. فيقضون حوائجهم باكرا ويعودون إلى بيوتهم باكرا، قبل حلول الأصيل. وتراهم يرددون "الفياق بكري بالذهب مشري." إلا أن عبد السلام فقد حماره الوحيد الذي يوفر عليه الوقت والمسافة معا.

تسمر عبد السلام في إحدى زوايا السوق، ممسكا بإحكام بخروفه. بينما جلس سليمان بالقرب منه يتثاءب. لم يتقدم أحد لشراء الخروف. الناس مشغولون، كأنهم يتسابقون، يتصارعون. لم يلاحظ أحد وجوده. وكأنه مسافر تائه، يلوحه بيديه ليوقف أحدهم على الطريق السيار. لا أحد هنا يقوى على الوقوف. الكل يتهافت، يجري، يصرخ. الكل خائف، مبرمج، مدفوع.

ظل عبد السلام ممسكا بإحكام بالحبل الذي يكاد يقطع أنفاس الخروف، في ظل لامبالاة سرمدية. حتى إن يداه بدأتا تتصبب عرقا، وبدأ الجوع يتغذى على خلاياه الميتة سلفا. أمر غريب هذا الذي تعيشه أوطاننا. يظل المرء غريبا حتى تأتيه الموت من حيث لا يعلم. فإن مات ودفن وذرفت بعض الدموع على فراقه وندبت رحيله القطط والكلاب، نسي تماما كأنه لم يكن.

بعد ساعات من الانتظار، الاحتضار، الانحدار، الأعذار، الأذكار، حل الأصيل. لفظ السوق آخر الفلاحين. بدأ الريح يعبث ببقايا السوق: أوراق دفاتر مدرسية. أغشية حلويات. أشلاء بصل، بطاطس، نعنان وعلب سجائر فارغة. فقد عبد السلام وسليمان الأمل في بيع الخروف، فما كان عليهما إلا أن يعودا أدراجهما قبل حلول الظلام، قبل أن يزيدهما الظلام خوفا على خوف ويزيدهما الإرهاق سخطا على سخط.

لكن، في عز اليأس هناك أمل. كيف؟ لا أعلم. في قلب الشتاء هناك ربيع يترعرع. في عز الشر هناك خير وفي رحم الظلام هناك فجر يهدد بالبزوغ. هكذا هي الحياة. في الجانب الاخر من الشارع الرئيسي للسوق، كان هناك رجل ستيني يراقب الأب وابنه وهما يتذمران ويتذممان من خلال نافذته الضيقة. اعتاد على ذلك منذ زمن بعيد.

فهو عالم اجتماع أناخ به العمر، فابتاع منزلا متواضعا، بعيد عن صخب المدينة وأجوائها المضطربة وحوادثها وعادات سكانها الفوضويون.

قرر الرجل، بعد ساعات من الملاحظة الدقيقة، أن يمد يد العون لعبد السلام وابنه، بعد أن تجاوزهما الكل. حتى الوقت لم يرحمهما. وما هي إلا لحظات حتى وقف الرجل أمامهما.

- مرحبا، أريد أن أشتري هذا الخروف. لقد أعجبني.

عند سماع هذه الكلمات، كاد عبد السلام أن ينفجر باكيا. بينما كاد سليمان أن يموت فرحا وسرورا.

- طبعا. إنه خروف سمين. ومن فصيلة أصيلة. إننا فقط في حاجة ماسة إلى القليل من المال، لذلك نود أن نبيعه، لقد مر الشتاء قاسيا، وفقدنا خروفا، لم يبقى لدينا سوى اثنان، نريد أن نشتري حمارا وبعض الدجاج....

قاطعه الرجل وما كاد عبد السلام أن يتوقف لو لم يتدخل قائلا:

- "نعم، نعم، إني تابعت الأخبار طيلة فصل الشتاء وقرأت العديد من الجرائد والمجلات، وقد تناولت هذا الموضوع بالتفصيل. قل لي فقط بكم تبيعه لي؟
- أنت تعرف يا سيدي أننا ....
- طبعا، طبعا... أعرف كل شيء.
- ألف درهم.

يخرج الرجل محفظته الصغيرة، فيمد مجموعة من الأوراق المالية لعبد السلام الذي سلم الحبل لابنه، حتى يعد المال.

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة؟ معذرة سيدي، لقد أعطيتني أكثر مما طلبت.
- أعرف.
- خذ مالك إذا...
- خذ مالك وخذ خروفك وعد إلى بيتك قبل أن يحاصركما الظلام هنا.

لقد بكى عبد السلام هذه المرة. وبكى معه سليمان. لماذا؟ لأن الانسانية تبكي. إذ لا لغة لها من غير الحب الفائض وتقدير معاناة الناس وضعفهم. لأنها جوهر الخير؛ الخير في الزمن والمكان المناسبين.

هذه هي الانسانية: أن تسعد الضعفاء، المستضعفون في الأرض. أن تقدر مدى حاجتهم للمواساة، للحب، للكرامة.

شكر عبد السلام الرجل شكرا. ووعده بزيارته في يوم من الأيام، حتى يتسنى له رد الجميل. فما كان على الرجل سوى أن يقبل عرضه بابتسامة عريضة ونظرات حنونة طيبة.

اقتنى الأب بعض الحلويات، فتناولا منها القليل، فالجوع كاد أن يودي بحياتهما. اشترى بعض الحاجيات الضرورية من زيت وسكر وملح وبعض الدقيق والشموع، وعادا يهرولان والسعادة تملؤهما ملأ. كأنهما فازا في نزال ضد الحياة. أو كأنهما متهمين أنصفهما قاضي حكيم. عادل. حتى الخروف بدا سعيدا بعودته؛ فلم يجد سليمان صعوبة في جره أو دفعه. كان يعرف أنه عائد إلى الحظيرة.

مع حلول المغرب، كان الأب وابنه قد أشرفا على الوصول، فتنفسا الصعداء.

في الطريق، سمعا أصوات صراخ تترامى بين التلال. تملكهما الخوف، فأخذا في الاسراع حتى بلغا البيت. فإذا بالزبير يبكي. يتباكى. لقد نفذ دواؤه ولم يقوى على تمالك أعصابه.

كانت فاطمة تصول وتجول في البيت، لا تعرف ما يجدر بها أن تفعل أو كيف تتصرف، فالزبير لم يتوقف عن الصراخ منذ صباح الأحد.

لقد ملت الأسرة هذا الروتين الحزين. كما لو أن الزبير يشكل، بالنسبة لها، عائقا أمام الطمأنينة النفسية. فالعيش لمدة حياة كاملة مع إنسان مريض، شيء لا يتحمله كل البشر؛ إنه، وهو مستلق على ظهره أو بطنه- فاختيار وضعيته لا تتوقف عليه. عكس اسبواغ. الحر. - يجسد الصورة الأمثل للنهاية. الضعف. الخذلان. الملل. قمة الملل. الكآبة. الحزن. الاستسلام. الموت. ونحن البشر، نهرب ما استطعنا سبيلا، من أن نلتقي وجها لوجه مع هذا الشبح التاريخي الذي لا يؤمن بالقوانين، ولا يفرق بين من يتقن اللغة اللاتينية أو يوقع أغلى صفقة في التاريخ.

الموت هي الحياة نفسها. بقدر ما نحب الحياة، نخاف من الموت. ولا تكفينا حياة قصيرة لنستعد إلى النهاية. بعضنا لم يبدأ بعد حتى ينتهي. البعض الآخر، اجتاز للتو مرحلة الوهم. والبعض الآخر، لا يلام: إنه نام إلى أجل مسمى وليس إلى الأبد. لذاك، فتأثير هذه الصورة على ذوق الأسرة في الحياة كان واضحا ومرتبطا بالموت. إنه جعل أفضل ذوق لطعامها مرا وأحسنه مرا أيضا.

كان موحا وسليمان في حاجة إلى الزبير. كانا في حاجة إلى أخ أكبر: كبير. قوي. يساعدهما في بناء فخ لعصفور وآخر لفأر؛ يساعدهما في بناء مأوى لـ "إسبواغ" أو البحث عنه. يساعد عبد السلام وفاطمة ويخرج أسرتهم من هذه الأزمة.

دخل عبد السلام يلهث ككلب صيد فشل في القبض على فريسته؛ فعاد مخذولا، عطشانا. زيادة عن الارهاق، الجوع، الشيخوخة، البؤس، الحاجة إلى النوم، الراحة، الهدوء، يصاب الأب بأزمة قلبية تقعده الأرض. يحتار سليمان، تتوسل فاطمة إلى الله، يرفع الزبير من صوته، يختنق البيت. "أين موحا؟"؟ يسأل سليمان. " أرسلته منذ الصباح ليخبر "با العربي"؛ لم يعد بعد." "يا للمجنون" يجيب سليمان.

وفجأة يهدأ الزبير. يطل موحا، يلمح والده ملقى يرتجف. يتسمر مكانه. يدخل "با العربي" أخيرا.

تدخل "با العربي" بسرعة وحرفية فائقة أدهشت الجميع. جرد عبد السلام من جلبابه. فبدأ في الضغط على صدره بعد أن ساعده في الاستلقاء على ظهره. أمر سيلمان بإحضار كأس من الماء. أحضر سليمان كأسان. رش "با العربي" بعض القطرات على وجه المريض،

وهو يتلو آيات من القرآن. أمر فاطمة بتحضير كأس من الماء الدافئ. النار ميتة. الرماد متشرذم. الحطب منعدم. الشمعة تتباكى. يجري موحا إلى الخارج. يجلب الحطب. يوقد النار. يغلي الماء. يقدمه لـ"با العربي". يخرج هذا الأخير عقاقيرا بيضاء اللون، كبيرة الحجم، يضعها في الكأس. تذوب في رمشه عين. يطلب من المريض أن يقاوم. يقاوم. يشرب القليل من الماء. الماء مر. يلفظ الجرعة. يرغب في القيء. أمعاؤه فارغة. يزداد الأمر صعوبة. يرغمه "با العربي" على تحمل المرارة. يفعل. وما هي إلا دقائق حتى استقرت حالته. "حياة بطعم المرارة": لو كنت مدير إشهار، لاستعملت هذا الشعار في إعلان لـ "كوكا كولا."

بعد أن أنقذ "با العربي" حياة عبد السلام، غمرت الدموع عيناه الغائرتان. حاول جاهدا تمالك أعصابه وردع دموعه بلا جدوى. إذ شرع في البكاء كطفل صغير ولم يقو أحد على التقدم لمواساته. ليس رفضا أو تكبرا، بل دهشة. إذ كيف لهذا الرجل الصبور، التقي والمتصوف، أن يتصرف بكل هذا الضعف والهوان؟ ما السبب في هذا الانهيار الغريب؟ وهو الذي كان يستقبل "موحا" من حين إلى آخر،

ويحاوره ويواسيه، مع أن "حاجتنا إلى المواساة غير قابلة للإشباع."[1] كما قال "ستيغ داجرمان". فكانا يتحدثان عن الفلسفة الإسلامية تارة وعن التصوف والأولياء الصالحين وعن الطب النفسي والعضوي والعلاقة الجدلية بينهما؛ وتارة أخرى عن العشق والهيام. لقد كان "با العربي" ضليعا في هذه المواضيع، ويجيد التطرق لها وتفسيرها.

حتى أنه أقنع موحا، حين جاءه في إحدى ليالي الشتاء المطرة، بعد أن هاجمته المشاعر واشتد جنونه، بأن الحياة قصيرة ولا تستحق كل هذا العناء والشقاء والذل. وبأن أعظم قصص الحب تنتهي إلى ذكريات هزيلة، كما قال "ميلان كونديرا". بينما حب الله وتقواه هو ما يستحق لقب الحب. فكان موحا يردد دائما " لكنني أحببتها". فيرد "با العربي": "حتى أنا. أحببتها. وباعت حبي بأبخس الأثمنة في مزاد علني للخردة." ولعل هذا الاعتراف هو الذي أعاد لموحا صوابه، خصوصا وأنه اعتراف رجل حكيم.

[1] Dagerman, Stig, Notre besoin de consolation est impossible à rassasier. Acte Sud.1981

الطبيب المتصوف

لقد باح "با العربي" لموحا بسره. وكان موحا الشخص الوحيد الذي يعرف قصة هذا الرجل. واسمه الحقيقي: " بن الهَيْثَم"، وهو طبيب مختص في جراحة القلب والشرايين. كان يعيش حياة سعيدة هو وزوجته وابنه ذي الأربع سنوات، في المدينة.

شاء القدر، ذات يوم، أن تنقلب حياة بن الهيثم رأسا على عقب. بينما كان يقرأ الجريدة في مكتبه في الطابق السابع من العمارة، سمع صراخا وهتافا وصخبا عارما في شارع عبد الكريم الخطابي، حيث يقطن. بينما كانت زوجته لاهية، تضع سماعات وتمارس الرياضة، وهي غير آبهة بما يقع في العالم. كانت زوجته من النوع المحب للمظاهر، للحياة، للوجبات الخفيفة، التسوق، وتتبع آخر مستجدات "الموضا" والمشاهير.

وما إن أطل بن الهيثم من النافذة، حتى رأى بركة من الدم، يجتمع حولها أناس كثيرون، بينما يستلقي طفل صغير وسط بركة من الدم، وقد انفصلت بعض أعضائه عن جسده. ذعر بن الهيثم ذعرا، حتى

إنه أراد أن يقفز من النافذة ليصل بسرعة إلى مكان الحادث. خرج مسرعا، لكن لا فائدة من السرعة الآن. سواء قفز من النافذة أو حلق في السماء، لن ينفعه ذلك.

في الجانب الآخر، لاتزال " هيفاء" تستمتع تحت مياه الحمام الدافئة، والسماعات تحميها من ضجيج الشارع الذي تكرهه سلفا، وتتعالى على سكانه البسطاء. على يسارها كأس عصير برتقال وعلى يمينها كأس نبيذ روماني. والحياة وردية والسماء زرقاء والعصافير تزقزق..

أراد "يحيى" أن ينقذ قطته، حين ظن أنها عالقة، فسقط من النافذة ليفقد الحياة بطريقة مأساوية. لم يجد بن الهيثم وسيلة لإقناع نفسه أن ابنه الذي كان قبل قليل يلعب في الصالون، قد أصبح في خبر كان. لم يستوعب الأمر قط. جن جنونه. يبكي ويسأل الناس: "أمات؟"، "هل مات ابني حقا؟"، "من الذي قتله؟"، "من الذي فعل بابني كل هذا"؟ تدخل الجيران. اتصل أحدهم بسيارة الإسعاف. اتصل آخر بالشرطة. بدا الأمر كلقطة من فيلم دراما أمريكي، أو ككابوس مروع ممتد في الزمن، يعاد دونما كلل. " أمت حقا يا يحيى؟". والمدهش في الأمر أن القطة كانت حينها مستلقية في الصالون تتثاءب مستعدة للنوم. حيث " في غياب "الأنا"، غياب مسكن يأوي إليه، يبقى للحيوان ملجأ واحد، هو النوم." كما قال دوكونانك.

وصلت سيارة الإسعاف. حملت الجثة في السيارة. انطلقت إلى المستشفى لإخضاع الجسد للفحص والتأكد من أسباب الوفاة. وصلت سيارة الشرطة برنينها الطنان، المثير للخوف. تقدم ضابط شاب. قدم تعازيه للأب الذي يعرفه سلفا، بل كان جليسه في القسم في المدرسة الابتدائية. أما الغريب في الأمر، هو أن هيفاء لاتزال تحت تأثير النبيذ وموسيقى "بينك فلويد" الصاخبة، تتزين أمام المرآة. مما أثار ذهول وشك الضابط.

- أين أمه؟
- لا بد أنها لم تعلم بالحدث بعد، لم أود إخبارها، ستموت حسرة. لا بد أنها في الحمام، لأنها كانت تجري حصتها الرياضية اليومية.
- لكن، يجب أن نخبرها على كل حال. اتصل بها لو سمحت.

عاد بن الهيثم إلى البيت وثيابه ملطخة بالدماء. " ماذا سأقول لها؟"، "كيف سأخبرها بالأمر؟" ألم تلاحظ غيابه؟"، " ربما تظن أنني اصطحبته في جولة إلى الحديقة". اقترب ابن الهيثم من زوجته، فإذا بها تقفز من مقعدها وكأنها صعقت أو صفعت.

- يا إلهي... ماذا حل بك؟ أين يحيى؟ تكلم.

ظل بن الهيثم صامتا والدموع تنهمر من مقلتيه كالمزن.

- تكلم. أجبني، أين يحيى؟

سيطر الغضب على الأب، الذي لم يتمالك أعصابه، فبدأ في سب وشتم زوجته.

- .... أين هو؟ أنت من يجب عليك أن تجيبيني؟ من أمه؟ أ أنا؟ لقد مرت ساعة كاملة على ...
- أكمل. أين هو؟
- لقد... لقد... أنت المسؤولة عن كل ما حصل، أين كنت؟ لماذا تركتيه لوحده؟
- أجبني فقط. أين ابني؟
- ابنك؟ يضحك الأب بسخرية. ابنك يا سيدتي مات. إن لله وإن إليه راجعون.

بعد أسابيع من دفن جثة ابنهما الوحيد، أصبحت العلاقة بين الزوجين مضطربة. يلوم الزوج الزوجة في الصباح. تلوم الزوجة الزوج في المساء وعند الفجر. يبكيان سويا بعد الظهيرة. تبكي الأم وحدها حين يخرج الأب إلى الحديقة، حيث يبكي وحده. تمسح دموعها عندما تسمع وقع أقدامه عند الباب. يتظاهر بالنسيان. تتناسى هي الأخرى.

تعد العشاء. ينتبهان إلى كرسي أبيض صغير الحجم. يتنازلان عن العشاء. يحضر الأب قنينة نبيذ. يشربان. يتذكران الماضي. يبكيان. يكسر الأب الزجاجة. تجمع الأم الأشلاء. ينام الأب على الأرض. تنام الأم على الأريكة. يرن الهاتف. إنه يوم الاثنين. الساعة السادسة صباحا.

- ألو "بروفيسور". أريد أن أذكرك أن لديك اليوم، على تمام الساعة الثامنة، موعدا مع المريض رقم 11، حيث ستجرى له عملية جراحية على مستوى القلب. طاب يومك.

نهض بن الهيثم بتثاقل. هو الذي عجز عن النوم لمدة ثلاثة أيام على التوالي. أخذ بعض المنشطات. فالعملية ستتطلب الكثير من الدقة والجهد الذهني والعضلي أيضا. تمام الساعة السابعة، اجتمع بن الهيثم بالفريق الذي سيساعده في إجراء العملية. والمكون من أربعة ممرضين، طبيب إنعاش، طبيب مختص في جراحة الشرايين، طبيب تنويم، طبيب جراح مساعد، بالإضافة إلى طبيبين مختصين في أمراض الجهاز التنفسي.

تمت مناقشة الحالة المرضية للمريض بعجالة، بحيث إن هذا الاجتماع هو الاجتماع العاشر. تم ضبط المدة الزمنية. تم تقسيم

الأدوار وتنظيم المراحل بدقة. وتم التذكير بأهم الاجراءات الاستعجالية التي من الواجب اللجوء لها في الحالات الحرجة القائمة أثناء العملية.

على الساعة الثامنة إلا ربع. اجتمع الفريق بالمريض. وتحدث إليه كل طبيب على حدة بنوع من الحماسة لزرع الأمل في نفسه الميتة سلفا. كما تحدث بن الهيثم إلى والديه، اللذان ينحدران من أسرة بورجوازية حاكمة، كبيرة النفوذ. كان الحديث مقتضبا. وكأن الأبوين كانا متأكدان من أن الأمور ستجري على ما يرام وأنه لا داعي للخوف. فما دام أنهما يملكان بعض السلطة، فلا مجال للطبيب أن يخطئ.

دق جرس البداية، على تمام الساعة الثامنة. تقدم طبيب التخدير ليدشن العملية وليمهد الطريق أمام الجراح. خطة لا بأس بها. إلا أنها بمثابة خيانة للوعي. ينام الإنسان بينما يتم تمزيق جلده ولحمه والتدخل بكل حرية في جسمه. إنها بمثابة سلطة مستلقة بذاتها يملكها الطبيب أو المستشفى بصفة عامة، وبكل شرعية قانونية.

بعد دقائق فقط. كان بن الهيثم قد فتح القفص الصدري للمريض. وهو أمر غير مقبول مبدئيا، بحيث يجب أن يراعي الجراح مجموعة

من الشروط وأبرزها التصرف والعمل باعتدال وبدون عجلة أو تسرع، لأن أبسط الهفوات قد تؤدي إلى كارثة.

تمكن الطبيب من استئصال شريان معفن بدون خطأ، بعد ثلاث ساعات حبست أنفاس الفريق الطبي. وحان الوقت لتعويض الشريان باخر مطاطي، وهذا هو الجزء الأصعب من العملية. في حين بدأ بن الهيثم يشعر بتعب ورغبة في النوم. لكنه قاوم وعزم على إنهاء العملية ومتابعة العمل.

وجد بن الهيثم صعوبة كبيرة في التركيز، كما أنه حاول إخفاء ذلك. الشيء الذي أسفر عن إحداثه ثقبا في قلب المريض وعن قطع شريان سليم في خضم تركيب الشريان المطاطي. بحيث أن تدخل الأطباء الآخرين لن يكون مجديا في هذه الحالة، وسيستغرق التدخل لإصلاح الخطأ المزيد من الوقت، الطاقة، المعدات، الأخصائيين.

كان بن الهيثم يتمنى أن ينجح في إنقاذ روح المريض، خاصة وأنه شاب في مقتبل عمره، ولا يريد أن تفقده أسرته والوجود، قد يكون لهذا الشاب شأن كبير في الحياة، ووقعا ايجابيا على المجتمع. لكن مع هذا الخطأ الفظيع ربما يصبح كل هذا مستحيلا.

انتهى الفريق من تثبيت الشريان، تم سد القفص الصدري. وحين حاول الفريق بواسطة الصعقة الكهربائية إعادة النبض للقلب، كانت المفاجأة ثقيلة. إذ رفض القلب التجاوب مع الصعقات، بعد محاولات كثيرة، لم يكن بن الهيثم قد انتبه لها. لأنه يعرف سلفا أن الحياة باتت مستحيلة بالنسبة للشاب.

خرج بن الهيثم ورأسه متكئ على صدره ليعترف بخطيئته، بينما كان الوالدين يتضرعان لله ويدعوانه أن ينقذ ابنهما.

- مرحبا سيدي، مرحبا سيدتي، أود أن أخبركما أن العملية باءت بالفشل. وأننا فقدنا المريض.
- غير ممكن أنت تمزح. تجيب الأم.
- تمنيت ذلك سيدتي. لكن...
- لكن ماذا؟
- الواقع أنه بعدما تبثنا الشريان، تدهورت حالة القلب لأنه كان أصلا في حالة غير صحية.
- كل هذا لا يهمني. دخل ابني إلى مصحتكم يتنفس ويتكلم ويبتسم. أعيدوه لي كما أحضرته لكم. ابني ليس بضاعة ولن تقنعوني بهذا الخطاب الزائف. أريد ابني. ابني حي.

أصيبت الأم بانهيار عصبي أدخلت على إثره إلى غرفة الانعاش. وكان الأب قد اتصل بمحاميه ليشرح له الأمر. واتصل بمدير المصحة وطالب بإجراء تحقيق في موت ابنه الذي كان يعاني من مشكل بسيط في القلب، ليفشل فريق طبي بكامله أن يجري العملية بشكل صحيح.

بعد التحقيق الذي أجراه طبيبين مختصين، تأكدا أن الجراح أحدث ثقبا في القلب ومزق شريانا سليما. مما أودى بحياة الشاب. عقب هذا الخبر، لم يكن أمام الأب إلا أن يرفع دعوى ضد الفريق الطبي الذي تسبب في موت ابنه.

وما هي إلا أسابيع، حتى فصل بن الهيثم عن العمل، باعتباره المسؤول الأول عن موت المريض، وتم الحكم عليه بعشر سنوات سجنا نافذا وتسديد غرامة مالية قدرها عشرة آلاف درهم. في حين تم الحكم على باقي أعضاء الفريق بغرامات مالية تتراوح بين عشرة الاف وخمسة آلاف درهم. يقول "تشارلز ديكينز"": "*نسمع أحيانا كلاما عن دعوى التعويض عن الأضرار ضد الطبيب غير الكفء الذي شوه أحد الأعضاء بدلا من شفاءه. ولكن ماذا يقال في مئات الاف العقول التي شوهتها إلى الأبد الحماقات الحقيرة التي ادعت تكوينها."*؟

قضى بن الهيثم عشرة أعوام في سجن مظلم، لا يزوره سوى شبح ابنه تارة وشبح الشاب الذي تسبب في وفاته تارة أخرى. أما "هيفاء" اللعوبة، فلم تنتظر أكثر من ستة أشهر لكي ترفع دعوة طلاق ضد زوجها، وتتزوج من رجل أعمال التقته في إحدى الملاهي الليلية بـ "عين الدياب".

وبعد خروجه من السجن، عاد بن الهيثم إلى الشارع الذي كان يسكنه، فوجده قد تغير تماما. تضاعفت المحلات التجارية. وتشابكت الأزقة. حتى إن العمارة التي كان يسكن في طابقها السابع، تحولت إلى سوق ممتاز، بعد أن اشتراها أحد رجال الأعمال، الذي هو زوج زوجته اللعوبة. هكذا غدا الطبيب متشردا، بلا أولاد يترحمون عليه ويستغفرون له، وبلا زوجة تحفظ ماء وجهه أو تواسيه في مصيبته. إنه لا جدوى من المواساة في هذه الحالة.

ولولا أحد زملائه في المصحة الذي تعاون معه ومد له يد العون، لكان مصيره الضياع. كيف يصبر المرء على الخيانة؟ إنها أخبث فعل في الوجود. أن تستأمن أحدهم، ثم يخذلك بدون تردد أو مراعاة، بدون اعتراف بالجميل أو تقدير، بدون تضحية أو أسف، بدون أدنى مشاعر الحسرة أو الندم، إن هذا هو الموت عينه.

تمكن بن الهيثم، برباطة جأشه وتحكمه في أعصابه وثقته في الله، من الحصول على تعويض من المصحة التي كان يضرب له ألف حساب فيها، ومن صندوق الضمان الاجتماعي. كما أنه استطاع استرداد الكثير من المال الذي كان يدينه لمجموعة من زملائه. كما أن رجلا جاء لزيارته، بعدما علم بخروجه من السجن. حيث نسي أمره تماما. ولم يتذكره إلا بشق الأنفس. وقد كان هذا الرجل راعيا، كان قد أقرضه بن الهيثم قدرا لا بأس به من المال ليستثمر في الماشية. وقد أصبح الرجل بفضله غنيا من أغنياء القرية وراكم الكثير من الثروة. فكان أن أرجع الدين بالفائدة. وكان من فضل الرجل واعترافه بالجميل، أن وهب منزله في الريف لابن الهيثم، بثمن رمزي، قبل أن يهاجر إلى المدينة. ومن ثم غير بن الهيثم اسمه إلى "با العربي"، متأثرا بـ " محي الدين بن عربي". واستقر في الريف بغية التعبد والتذلل لله عز وجل.

فصل الصيف

إن أكبر هدية تضعها الطبيعة بين أيدي الإنسان هي الربيع. حرارة معتدلة. مجاري عذبة وصافية. أزهار في كل اتجاه. ثمار برية. روائح عطرة. نفسية هادئة. يظل الربيع عروس الفصول إلى أن يأتي الصيف. فإن حل ذبلت الأزهار. هاجرت الطيور. جفت المجاري. ارتفعت الحرارة. بعد أن كانت تحت رقابة الربيع. ظهرت أصناف من الزواحف والحشرات السامة، كالعقارب والأفاعي. تغيرت الهرمونات ومعها البشر. أمر مدهش.

تمكن عبد السلام، بفضل مساعدة "عالم الاجتماع" الستيني، من العودة إلى السوق مرفوقا كالعادة بسليمان. إذ ابتاع جحشا يافعا، وبضع دجاجات وديك، وأرنبين. وبفضل توافر الغذاء والأعشاب الطازجة بكل أشكالها وأصنافها، كبرت الدواجن وتكاثرت بسرعة، وتكاثرت الأرانب كذلك. مما أتاح للأسرة تحسين نظام تغذيتها. فأصبح البيض واللحم متوافرين. وتحسنت الحالة الصحية لكل أفراد الأسرة. بما في ذلك الزبير. إذ كان يساعده سليمان، من حين إلى

آخر، في الخروج إلى الطبيعة والجلوس في الحقول مطولا؛ يتأمل في هذه اللوحات المبهرة دون أن يحرك ساكنا. كأن روحا خفية نفذت إلى أعماقه فغمرته بالحب الذي كان يفتقده وأدخلت على قلبه البهجة والطمأنينة. يقول "كريشنمورتي": " *هل سبق لك أن جلست بهدوء دون أدنى حركة؟ حاول ألا تتحرك، وأبق ظهرك مستقيما، ولاحظ ماذا يفعل عقلك. لا تحاول أن تراقبه. لا تقل إنه يجب أن تمنعه من أن ينتقل من فكرة إلى أخرى، من قطب اهتمام إلى آخر. كن فقط منتبها إلى الطريقة التي ينتقل بها من "الديك إلى الحمار"*[2] *(أي من موضوع معين إلى موضوع آخر لا يشبهه تماما) . لا تحاول منعه. راقبه ببساطة كما تراقب، من خلال اليابسة، جريان نهر يحمل معه الكثير من الأشياء: أسماك، أوراق، حيوانات ميتة. لكنه يظل حيا. متحركا. كذلك الشأن بالنسبة لعقلك. فهو مضطرب دائما، وفي حركة. ينتقل من شيء إلى آخر.*"[3] أما الجلوس في البيت، وهو ساكن حتى الموت، فلا يسبب سوى الألم والملل. و "الملل يولد العنف" كما قال دوكونانك.

في حين، عاد موحا إلى الجامعة، بعد أن أدلى لرئيس شعبة الفلسفة بشهادة طبية، تؤكد الاضطرابات النفسية التي عانى منها. وهذا لا

يخفى على أساتذته وزملائه. فكان أن رحب به الجميع، بما في ذلك أصدقاؤه في الحي الجامعي، الذين غدوا اثنان فقط؛ بعد أن غادر "علي" أسوار الجامعة، نظرا لتأزم وضعية أسرته الأمازيغية ومرض أمه التي كانت تمول دراسته.

في الأول من حزيران، أعلنت الجامعة عن نتائج المسابقات الفنية التي كانت قد نظمتها في بداية السنة. كان موحا آنذاك في إحدى مقاهي المدينة القديمة، يجلس أمام شاشة حاسوب محمول وهو يرتشف قهوته المرة. إذ كان مطالبا بإنجاز بحث التخرج للحصول على دبلوم في الفلسفة. وقد كان موضوع بحثه كالاتي: " حاجتنا إلى المواساة رهيبة".

ترك موحا المقهى، قبل حلول الظلام بقليل. إنه لا جدوى من الجلوس في المقاهي الشعبية في هذا الوقت. يعج المكان بالناس. حتى إنك تجد في المقهى أو الحانة من القوم ما يفوق عدد المصلين يوم الجمعة. أمر غريب. والأغرب هو، ليس فقط، اجتماعهم حول الطاولات من أجل شرب القهوة، التدخين أو الحديث عن مشاكلهم اليومية أو مشاريعهم الهزيلة؛ بل يتعدون ذلك إلى الصراخ والقهقهة. واستهلاك المخدرات والأكسجين كذلك. حتى إذا نظرت إلى أحدهم بغرابة لكي تومئ له بأن نبرة صوته أزعجتك، عاود نفس الفعل وتمرد على نظرتك

البسيطة بعنف وشماتة. وفي مثل هذه الحالات، كان يحس موحا، أن هؤلاء الناس يحتاجون إلى المواساة أكثر من غيرهم على الاطلاق.

حين وصل موحا إلى غرفته بالحي الجامعي، وجد زميليه فرحين. لم يعهد هذه الفرحة على محياهما. فإذا بهما يتهافتان على معانقته ومداعبته مرددان: " لقد فعلتها؛ لقد فعلتها؛ لقد قلنا لك أنك ستفوز...". لقد نسي موحا أمر المسابقة تماما. نسيها حين نسي "رانيا"؛ فهو لم يكتب إلا لها. إذ لم يعد يتذكر قصتها منذ أن قال له "با العربي": " وأنا كذلك أحببتها؛ لكنها باعت حبي بأبخس الأثمنة في مزاد علني للخردة.".

- عن أي فوز تتحدثان؟
- أنت تمزح أليس كذلك؟ يسأل عيسى.
- لا؛ أقسم أنني لا أعرف عما تتحدثان.
- ألم تشارك في مسابقة الشعر بكلية الآداب؟ يسأل موسى.
- اه... اه... صحيح. من أطلعكما عن هذا الخبر؟
- يا أخي كل العالم يعلم بفوزك إلا أنت. يضحك عيسى.
- أنا حقا لم أصدقكما. أعذراني. لكن لم أصدقكما. أنتما تمزحان فقط. كيف لي أن أفوز وأنا مجرد شاعر هاوي لا

أفقه في الشعر شيئا سوى الاسم؟ هذا هراء. يضحك موحا بسخرية.

- أقسم لك أنك فزت. يضيف موسى وهو يطلعه على بلاغ اللجنة المنظمة على صفحتها الرسمية على "فايسبوك". أعتقد أن اسمك الكامل هو "موحا ميم كاف" وأن عمرك أربعة وعشرون سنة وأنك طالب فلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية. أ تظن أن فريقا من الأساتذة قد أخطأ؟
- يضيف عيسى: " ثم إن عنوان قصيدتك هو: "غائبة". ألا تتذكر هذا العنوان أيضا؟ لقد أناخ بك الجنون يا صديقي. يقهقه عيسى.
- لم أكن أعلم أنك محظوظ يا صديقي. ابتهج وافرح. إنك ستسافر إلى حيث شئت وستقضي عطلتك خارج الوطن. والله إنك مجنون حقا. يستغرب عيسى.
- حتى إنه لم يبتسم. يضيف موسى.
- لو أنني فزت في هذه المسابقة لخرجت أهتف وأغني بكل ما أوتيت من قوة أمام الملأ حتى يظنوا أنني فقدت صوابي أو أسكرني عصير رمان إغريقي. يردد عيسى وهو يتفجر ضحكا.

- والله لو كنت أنا الفائز، لخرجت، فركضت من الحي إلى الجامعة، وعدت فرحا. بل سأتحدث إلى كل عابر وأقبل رأسه. يضيف موسي.

بينما احتفظ موحا برباطة جأشه وثقة في النفس، كعادته. ولم يتردد في إطلاق سراح ابتسامتين أو ثلاثة، حتى لا يكون غليظ القلب أو بخيلا على صديقاه اللذان أبديا فرحتهما لفوزه. وليست هذه الرزانة نابعة من شيء سوى من الذكرى. لقد تذكر كل شيء في لمح البصر: فاطمة، الاثنين، 27 أكتوبر، الجامعة، قسم الجغرافيا، أستاذ الجغرافيا، البواب، البحر، با العربي، الشتاء، عبد السلام، الزبير، القمر، الريف، كانت كل الذكريات تنهال عليه من كل جانب؛ بما في ذلك صورة امرأة غير واضحة. فتنهد بعمق وقبع بسريره وكأن شيئا لم يقع. فيما تابع موسى وعيسى حديثهما، بغرابة، عن رد فعل زميلهما. في هذه اللحظة، كان موحا متحمسا لإضافة إشكالية إلى بحثه: "كيف يعقل أن يكون الإنسان في حاجة إلى المواساة في الوقت الذي يتوجب عليه أن يكون مغمورا بالسعادة؟ ما معنى السعادة؟"

وما إن انحدر برقع الليل، حتى هاجمته صورة "رانيا"، وهي تتباهى بجمالها ورقتها. فشرع في مخاطبتها:

مالي أرى ذكرياتك هنا على سريري؟

ألم تأخذي أحمر الشفاه من غرفتي؟

خذي ذكرى زواجنا الوهمي من خزانتي أيضا

وخذي مشطك من جيبي

وخذي أنفاسك من غرفتي

وارحلي إلى الأبد.

حتى في اختيار إكسسواراتك تمارسين العنف.

خذي كل شيء أو ظلي فأشلاء أغراضك بدونك لا شيء.

ثم لما لا تأخذي مفتاحك؟

أ اشتريت "فيلا" على الساحل ولم يعد قبوي يناسب قامتك؟

خذي قصصك المضحكة كذلك. فأنا اعتزلت الضحك.

خذي ألبوم صور الموضا ومجلات المشاهير. فأنا أكره المظاهر.

خذي أقلامك الملونة. فأنا أعشق الأسود.

خذي مسطرتك وأوراقك المليميترية فكل قراراتي باتت عشوائية.

خذي مراتك. فأنا لا أهتم بلون عيوني ولا بتسريحة شعري.

خذي عطرك؛ فهو بالنسبة لي كمبيد حشرات.

خذي ضحكاتك المنتشرة في الحديقة. لقد أضجرت الطيور.

خذي كل شيء. بما في ذلك رأيك في بذلتي الجديدة،

تسريحة شعري العشوائية،

ابتسامتي الملغية،

جواربي المثقوبة،

كتبي الحزينة،

وقصائدي المنسية.

لم يصدق موحا خبر فوز قصيدته بالجائزة الأولى في الشعر. مضى الليل إلا أقله ولم يبق سوى أن تتفجر لمة الظلام على جبين الفجر؛ هجع موسى وعيسى في مرقدهما، ولا يزال الشاعر قابعا في سريره

يتقلب ذات اليمين وذات الشمال. وكأن كل مشاعر الكون تآمرت على عقله العائد حديثا إلى صوابه بعد أشهر من الجنون.

فبكى من شدة الفرح دون دموع، وحزن بكل جوارحه دون أن يعرف السبب وراء ذلك. منعه الأرق من النوم. يغرب في الضحك دون أن يضحك ويساهر خيال امرأة دون أن تتجلى صورتها بوضوح أمامه، حتى ظن أنه نائم وما شاهد إلا كابوسا من الكوابيس المرعبة. بل راودته مرارا فكرة الجنون الحقيقي، أو امتداد جنونه، الذي ظن أنه شفي من عذابه. تمنى حينئذ لو أنه لم يشارك في هذه المسابقة ولم يحلم أبدا بالخروج من أرض وطنه الذي، بالرغم من أنه وطن يتقن فن النسيان، التناسي والإهمال، إلا أنه يتبرع لفائدة مواطنيه بألقاب وهمية وكؤوس لا فضية، بل ذهبية اللون، أصلها من مطاط أو حديد رخيص بل مجاني...

في اليوم الموالي، استيقظ موحا بعد أن غفى لدقائق أغلق خلالها عيناه وظل عقله مشوشا لم يهدأ له بال ولم يستقر عند صورة فيقتحم تفاصيلها ويغزو أعماقها إلى أن يقع في فخ النوم؛ أو يذهب بخياله إلى المريخ أو زحل حتى يأخذه النوم هناك.

هرع إلى الجامعة حتى يتأكد بأم عينيه من خبر فوزه. توجه بخطى غير منتظمة، كأنه لص يتسلل في ظلمات الليل، أو بصير يتحسس بعصاه حاشية الرصيف. وما إن رأى ملصقا جديدا على الجدار الأمامي للإدارة حتى بدأ قلبه في الخفقان؛ كأنه قاتل يغطي وجهه كي لا تكتشف أمره الشرطة.

أطال النظر في الملصق وهو واقف وقفة حارس فندق، لا يرتاده سوى الأمراء ورجال الأعمال ذوي الصيت والجاه. أو كفنان تشكيلي أغرم بلوحة غريبة لتشكيلي مجهول. فظل حائرا يتطلع إلى اسمه الكامل. لقد اشتاق لنفسه. بدأ يناجي نفسه دون حركة:

"موحا ميم كاف"... موحا.... لا أدري لماذا اختار جدي هذا اللقب. حتى إنني لم أسأل أمي يوما عن سبب التسمية. على كل حال فهي لا تدري. إنها لا تعرف حتى الحروف الأبجدية والأرقام البسيطة. ولا ذنب لها في آخر المطاف. إنها مسؤولية جدي. لكن النساء في الخمسينات، كن محرومات من رؤية السوق؛ كيف إذا سيسمح لها جدي بمخالطة الفتيان؟ إنه أمر غريب حقا. بل أظن أن الفتيان أنفسهم لم يكونوا مهتمين بالتمدرس، التعلم، الفلسفة؟ والدليل على ذلك أن أبي هو الآخر لا يجيد القراءة ولا الكتابة، بل إنه كان دائما يجد صعوبة في الحساب. المهم اليوم أنني سأكبر في عين أمي وأبي وسليمان والزبير وبا

العربي. مهلا؛ ألا يمكن أن أصطحب أحدهم معي إلى... سأختار دمشق... لا. مهلا، ما اسم الشاعر المجنون الذي حدثني عنه عيسى؟ الجامع؟ ادريس الجامع؟ لا. بل جماع. نعم ادريس جماع. حسنا سأزور السودان. سأتجول في شوارع الخرطوم وأنا أشعر: " أ على الجمال تغار منا؟ ماذا بنا إذا نظرنا..." سيحبني السودانيون. إنه شعب طيب. أو ربما لا يعرفون هذا الشاعر. لقد مات الأدب في بلداننا العربية. مات المسكين حين مات الجماع ومات الطيب صالح ومحمود درويش والعقاد وأمل دنقل... لكنني سأذهب إلى السودان. وسأزور قبر جماع وأضع الورود على قبر الطيب صالح وأبكي على الاثنان في "مقبرة البكري"، وأنظم شعرا على "جبل المرة" و " أستحم في "شلال السبلوقة" و...".

وفجأة اجتمع حوله ثلة من الموظفين والطلبة وهم يصفقون، فكدروا عليه خلوته ومناجاته. "تهانينا الحارة لك شاعرنا." يباغته عميد الكلية. وهو رجل في الأربعينيات من عمره؛ طويل القامة، أنيق الملبس، يجد صعوبة في مخارج الحروف حين يتكلم، ويخجله ذلك كثيرا؛ فيكتفي بجمل قصيرة وضحكات موزونة حتى لا يثير الانتباه. وبعدها مباشرة ينطق أستاذ الأدب العربي قائلا: " سأسعد باستقبالك في مكتبي حالما تنهي أمورك." ثم أطرد أستاذ الجغرافيا: "

اااه... أنت تتفلسف وتشعر أيضا؟ يا لك من بارع. ذكرني باسمك؟ صحيح موحا.. جميل تحياتي الخالصة وتهاني الحارة لك بمناسبة هذا الفوز. ستجول العالم إذا؟". "موحا...ذكرتني بإحدى شخصيات الكاتب المغربي الطاهر بن جلون. أ قرأت روايته؟ " موحا المجنون، موحا الحكيم؟"، يضيف أستاذ الأدب المقارن.

لم يتحرك موحا من مكانه، فاستدار شطر مخاطبيه واكتفى بترديد كلمات وعبارات دون تفكير أو تحفظ: " شكرا لكم أستاذ."؛ "طبعا"؛ " نعم. شكرا جزيلا."؛ صحيح أستاذ... شكرا... طبعا، نعم... إن شاء الله... على الرحب والسعة...

الإنجاز

في العاشر من تموز، أقيمت أمسية ثقافية عظيمة، تحت إشراف الجامعة وشركائها. وذلك من أجل تكريم الفائزين وتسليم الجوائز. تم تجهيز قاعة واسعة، نظرا لكون هذه المناسبة موسمية وتأتي برمجتها على هامش نهاية الامتحانات والدورات الاستدراكية، وقبل فتح ملف مناقشات البحوث والأطروحات الجامعية، التي غالبا ما يتم تكديسها بشماتة في قاعات شديدة الرطوبة، إلى أن تتآكل صفحاتها.

"مدرج الجغرافيا". أكبر مدرج بالجامعة. أكبر من قاعة المحاضرات. وأوسع من الجامعة نفسها. ماذا يفعل الناس هنا؟ إنهم يدرسون الجغرافيا والجيولوجيا وهم جالسون إلى جانب مجسم قيل إنه يجسد الأرض. أرض دون جاذبية. دون قمر. أرض بلا جنوب ولا شمال.

وقد حضر هذه التظاهرة عدد من الكتاب، التشكيليين، الشعراء والفلاسفة، أو "أشباه الفلاسفة"، كما كان يردد موحا. بحيث يعتقد أن الجامعات فعلا تدرس الفلسفة وتمنح الشواهد والديبلومات،

لكنها لا تنتج فلاسفة. الفلاسفة يعتقد موحا، يولدون كذلك، فتجعل منهم الجامعة بأنظمتها التربوية المفبركة "أشباه فلاسفة" مغرورين، يتعالون على العامة، يلبسون البذل الجديدة الأنيقة ويتبجحون بأستاذيتهم ومكانتهم.

إلا أن الفلسفة لا تتماشى وهذا النمط الدنيء والوضيع من الأفعال. فسقراط لم يكن يتبجح بأستاذيته ولا بمعرفته؛ بل كان متواضعا حكيما. أ وليست الفلسفة هي حب الحكمة؟ بل تتعدى ذلك إلى الممارسة. ممارسة الحكمة والإحساس العميق والقلبي بالآخرين. ليس فقط الضعفاء والمستضعفين، بل المجانين والسفهاء، كهؤلاء الذين يطيلون الجلوس على مقاعد المقاهي، يتجسسون على السابلة، يغتابون الغرباء، يستهزؤون بالفقراء ويضحكون على التائهين والمحبطين.

هذه أمور لا يهتم بها "أشباه الفلاسفة" في جامعاتنا العربية ولا تعالجها أطروحات دكاترتنا الوهميين، "تجار الرقاد". يقول "ألان": *"مروا إذا بدون توقف وسط تجار الرقاد؛ وإذا أوقفوكم أجيبوهم بأنكم لا تسعون إلى نظام ولا إلى سرير. لا تتعبوا من التفحص والفهم (...) اقرأوا، أكتبوا، ناقشوا، أحكموا، لا تخشوا زعزعة الأنظمة، سيروا على خراب، ابقوا أطفالا (....) لقد بدا سقراط لكم سيدا سيئا.*

ولكنكم رجعتهم إليه. فقد فهمتهم لدى سماعه أن الفكر لا يقاس بمقياس ذراع، وأن الخلاصات ليس المهم؛ ابقوا يقظين، هذا هو الهدف. لقد قتل تجار الرقاد في ذلك الوقت سقراط، غير أن سقراط ليس ميتا. ففي كل مكان يناقش فيه الناس الأحرار، يجلس سقراط مبتسما وأصبعه على فمه. لم يمت سقراط أبدا. وسقراط ليس شيخا(...) كل فكرة تصبح خاطئة عند الاكتفاء بها."

كل الفائزين في هذه المسابقة كانوا سعداء؛ تكاد الفرحة تفجر أدمغتهم. وهنا يقف موحا متسائلا: " هل يشعرون فعلا بالسعادة؟ ".

تقدم الفائز الأول فاتحا فمه، إلى درجة أنه أخل بقواعد الابتسامة وانتهك حرمة الضحك؛ فما هو بضاحك حتى تبرز قواطعه ولا هو بمبتسم يخفي رغبته في الصراخ والقهقهة. يرتدي بذلة كلاسيكية زرقاء، تتخللها ربطة عنق حمراء، وحذاء بني، تحسب في بادئ الأمر أنه صنع من خشب العرعار أو الكلبتوس. يتقدم بسرعة وهو يلقي نظرة هنا وينشر نظرات هناك، كأنه يود أن يتأكد أن الجماهير تتابعه بإعجاب. " يردد موحا: " هل هو سعيد حقا؟ ليتني أستطيع النفاذ إلى عقله حتى أتأكد.". يصعد أخيرا إلى الخشبة.

تبدأ الجماهير في التصفيق والتهليل. تطلق امرأة سراح زغاريد مضجرة. تتوالى الزغاريد من كل جانب. يحضر موحا مشهد "خروف بانيرج". تشتعل أضواء كاميرات الهواتف الذكية لالتقاط الصور. تم التقاط المئات من الصور.

فجأة، عم صمت نسبي. حيث بدأ الطلبة في تبادل الآراء حول الفائز؛ فتسمع في جو من الفوضى المنتظمة أقوالا كثيرة: " أنا شخصيا، لا أعرفه."؛ لقد سبق أن رأيته ذات يوم في محطة القطار، يبدو أنه قادم من الشمال."؛ "نبرة صوته غريبة".؛ أ رأيت؟ قلت لك أنني لا أريد أن أحضر "حفلة التفاهة" هاته."؛ " قلت لك أنه وسيم."؛ " لم تعجبني بذلته، تبدو قديمة على نحو سيئ."؛ " إنه يتبجح كأنه فاز بجائزة نوبل للفيزياء."؛ " إنه فقير. أقرضته ذات يوم عشرون درهما."؛ " لو أنني شاركت في هذه المسابقة، لما وجد له متسعا هنا...".

بعد لحظات فقط، تقدم العميد، ألقى كلمة باقتضاب: " بسم الله الرحمن الرحيم... سعداء بـ... ويشرفنا منح جائزة الكوميديا للطالب المتفوق "اسماعيل ل.ع"... وما إن صمت العميد حتى اشتعلت القاعة صخبا. " اه...إنه مهرج إذا، لقد خمنت ذلك."؛ " قال إنه متفوق. يضحك أحدهم. في الفكاهة. يقهقه."؛ " يلزمنا، نحن العرب، الكثير من المهرجين حتى نبتسم." يضيف آخر.

وما هي إلا ثوان حتى تسلم جائزة ورقية رخيصة، عبارة عن تمثال مهرج من البرونز وشهادة تقديرية. كادت هذه اللقطة أن ترسله إلى المستعجلات أو إلى مقبرة الشهداء. يضيف أحد الحاضرين متحدثا إلى زميله: " يرتجف كأنه عجوز. اه، لقد مات الرجال وبقينا نحن مع الذكور."؛ " يبدو أنه يستحق. إنه يستحق." يضيف آخر.

تقدم الطالب لإلقاء كلمة شكر وهو غارق في ابتسامة طويلة. " إني أعجز حقا على التعبير عن شعوري حيال هذا الفوز العظيم. وهذا التكريم الذي كنت في أمس الحاجة له. (يتساءل موحا: كيف يمكن للأشياء أن تواسي الإنسان؟") أود أن أشكر... وأشكر.... كما أهدي هذا الفوز إلى حبيبتي، التي ساندتني طوال مدة التحضير...". تهمس أستاذة الفيزياء في أذن أستاذة القانون الجنائي: " ظننته سيهدي جائزته إلى أمه. يا أسفاه. قال حبيبتي... لم يخجل... من أمه...".

وهكذا انتهى به المطاف أسفل الدرج، تحت الخشبة. يبدو مخذولا، غير راض، غير واثق من نفسه.. وما كاد يهبط لو أن أحد المشرفين لم يتحدث إليه بأدب قائلا: " يمكنك النزول مشكورا. لدينا فائزون آخرون."

تمنى لو أنه ظل يتحدث إلى أن يسقط قرص الشمس في العدم. كانت انطباعات الحضور كثيرة. إلا أنها تشابهت إلى حد كبير. خصوصا بعد ما علموا أن الطالب لم يقدم سوى نصا كوميديا لا يثير الضحك، وأغلبية الحاضرين لا يحتاجون إلى الضحك، بقدر ما يحتاجون إلى البؤس. لقد أدمنوا البؤس. الجد؟ لقد ملوا الهزل. أعياهم الخمول والكسل. لا جدوى من هذه الانتهاكات الحميدة... هذا الهراء.. هذه البلاغة الصبيانية.. البلاغة تموت. البلاغة ماتت مع "الجرجاني"...

تقدمت المشرفة من جديد: عيناها متعبتان، وجهها يتصبب عرقا، لا يناسبها التنشيط الثقافي، ربما يصلح أن تكون نادلة، لتكتفي بحركات روتينية فقط: تقدم القهوة، تنتظر الدفع، يدفع لها وهكذا دواليك.. ننادي الآن على الفائزة " لمياء ألف." فلتتقدم مشكورة."؛ "لمياء ألف". "هل أنت هنا؟"؛ "يبدو أن الفائزة تغيبت عن الحفل." ؛" لمياء ألف".

تعاود المشرفة النداء بنبرة تحمل في طياتها الكثير من الغضب، وكأنها تود أن تقول: " سواء لدي أن تكوني أو لا تكوني.".

"يبدو أن المشاركة تغيبت عن الحفل." ظلت تردد هذه العبارة وكأن الجمهور لا يعرف ذلك. " سننتقل إلى المناداة على الفائز الثالث.

وللتذكير، فلمياء ألف فازت بالجائزة الأولى صنف القصة..". ننادي على الفائز الثالث: " عثمان باء جيم"..

وما هي إلا لحظات حتى فتح باب القاعة بعنف. التفت الجميع نحو الباب. إلا موحا. ظهر رجل بلحيته الطويلة وبطنه المنفوخ ككومة قش؛ يردد كلمات غير مفهومة وكأنه غير راض على أمر ما. بينما تنهمر على طرفي وجهه سيول من العرق. " تقدمي... أنت دائما متأخرة... يا ربي لطفك، ستفقدني صوابي هذه الفتاة." ينطق الرجل بصوت خشن تتخلله رغبة في ممارسة العنف. فتسللت فتاة تحمل في يدها حقيبة ثقيلة كأنها محملة بالحجر أو بالفولاذ. نزلا الدرج بهدوء، لتعم الفوضى من جديد: " لا بد أنها لمياء ألف". "أبوها أم زوجها؟". " إنه لم يساعدها حتى في حمل حقيبتها. لا بد أنه زوج ذكوري"." أو قل أب عنيد وسكير. "." ربما". " يا للمسكينة". " لا تضع أحمر شفاه". " نحيفة". " حزينة". " جميلة". " يزيدها الحزن جمالا"." أهي الفائزة بجائزة القصة القصيرة؟ ترى ما عنوان قصتها؛ لا بد أن يكون حزين هو الآخر.".

تقدمت الفتاة بعد أن وضعت الحقيبة إلى جانب الدرج المؤدي إلى الخشبة. "عفوا سيدتي. أنا لمياء ألف" وقد فزت بـ...". " أعلم، أعلم، لقد تأخرت عن الموعد وأضعنا بسببك الكثير من الوقت." " سيداتي،

سادتي، الفائزة بالجائزة الأولى صنف القصة القصيرة: لمياء ألف. وقد جاءت أخيرا. وعنوان قصتها: " قطع لحم مشوي". تتفجر الجماهير ضحكا. إلا موحا. " لقد قالت " قطع لحم مشوي". " كان عليها أن تقليه." يضيف آخر بسخرية حتى إن لمياء التقطت ما قاله.

يكلم موحا نفسه: " ترى ماذا يضحكهم؟ أجد أنه عنوان كبير مقارنة بحجمها صحيح. لكن ما الجدوى من الضحك هنا؟ لا بد أنه عنوان يحمل الكثير من الأسرار. "قطع لحم مشوي." لا يدل هذا العنوان على وجبة طعام ينقصها كأس نبيذ. لا بد أنها تقصد شيئا آخر. أليست قطع اللحم مجتمعة في جسد؟ وكلمة مشوي؟ ألا تدل على النار؟ الحرارة؟ الألم؟".

وبعدما تسلمت "لمياء ألف" جائزتها، وهي عبارة عن كتاب نحاسي وشهادة تقديرية، همت بالانصراف من شدة الخجل وهي تقوم بحركات غير عادية. يستغرب موحا: " لم أر أخجل من هذه الفتاة يوما. ليت جميع نساء عصرنا كن مثلها. إن الخجل والحياء ليسا ضعفا؛ عكس ما يظنه الكثيرون، خصوصا دعاة تحرير المرأة من النسويين والنسويات. يعتقدون أن المرأة الحرة هي التي تكشف على مفاتنها؛ بل هناك من "أشباه المثقفين" من يجرؤ على القول بأن كل فتاة خجولة هي فتاة ضعيفة أو أضعفها، في آخر المطاف، الوسط

الاجتماعي الذي تعيش فيه. وهذا خطأ فادح. بل أجرؤ أنا على القول إن كل هذه "الفكرويات" قد وردتنا من الغرب. ألم يرى مثقفونا إلى أي حد يكره الأوروبيون المرأة المتحجبة؟ ومع ذلك فإنهم يطبلون لهم ويقرأون مؤلفاتهم بكل إعجاب وكأنهم أميون لا يفقهون في المعرفة شيئا ولا يقووا على كتابة ما يجعلهم يعترفون بثقافتهم..". فالنخبة عندنا، يقول "شكري عياد"، تقنع عادة- حتى في مجال الثقافة- بآخر ما أنتجته المصانع الأوربية أو الأمريكية، وقد تضع في أعز مكان في "الصالون" ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق".

وما إن جلست لمياء بالقرب من الرجل الذي رافقها، حتى غمرته فرحة لا توصف، افتخارا بها. كادت الجماهير أن تبكي لهذا المشهد. حيث كانت انطباعاتها في بادئ الأمر مقرفة على نحو تراجيدي، وكأنها تنبأت بكون الرجل قاسيا، غليظ القلب، عديم المشاعر. وها هي تشاهده بقرة أعينها، وهو يضم الفتاة إليه ويثني عليها ويبدلها أطراق الحديث باتزان وحنان. هذه هي عادة الجماهير؛ إنها بارعة في الحكم على الناس وتوزيع الشتائم عليهم بالجملة.

في خضم هذا المشهد، داع بين الصفوف خبر كإشاعة، زاد من تعاطف الحاضرين مع الفتاة والرجل. فأصبحا موضوع كل الألسن وهدف كل أضواء الكاميرات البشرية والاصطناعية. وذلك حين علموا

أن لمياء ألف هي طالبة سورية من ذوي الاحتياجات الخاصة، مصابة "بمتلازمة توريت" وأنها فقدت أمها في سن الطفولة أثناء الحرب. فكان أبوها مجبرا على اللجوء إلى المغرب بعد ما فقد كل شيء تقريبا: زوجته التي تزوجها عن حب، والذي تعرف عليها في الجامعة. مكتبته التي احترقت. أشعاره وأشعار زوجته وسيرتها الذاتية غير المنشورة. صوره وصورها وصورهما. بطاقة هويته. جواز سفره. احترق كل شيء وذهبت ذكرياته وماضيه هباء منثورا. فأصبح رجلا بلا هوية وبلا تاريخ. وما فتئ يندب حظه العاثر ومصيره التراجيدي المأساوي، حتى كاد أن يفقد صوابه، بل إنه لم ينس يوما هذه الخسارة المؤلمة. فكان كلما جاءه أحد أقربائه لمواساته والأخذ بيده، قال:

" إن حظي كدقيق فوق شوك نثروه

ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه

صعب الأمر عليهم ثم قالوا اتركوه

إن من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدوه"[4].

---

4 الشاعر السوداني ادريس جماع.

ثم استرسلت التتويجات على نفس النهج، إلى أن حان دور موحا. يجلس في أقصى اليمين، في الصف الخلفي، يقعد على يساره موسى وعلى يمينه عيسى. بهدوء وصمت. يعلق أحدهما على مشهد أو حركة بين الفينة والأخرى بالتزام فيمد الآخر أذنه بمهل، وكأنه أم تهب رضيعها ثديا مليئا بالحليب، فيلتقطه دون هفوة أو تهاون.

وما هي إلا لحظات حتى عادت المشرفة إلى المنبر تنادي: " وننادي في هذه الأثناء على الطالب "موحا ميم كاف"، الفائز بالجائزة الأولى في الشعر الحر. فليتقدم مشكورا."

يقف موحا باتزان؛ ينفلت بسلاسة من بين صديقيه، ومن ثم يتحاشى بلطف الجماهير وهي تمد سيقانها إلى الأمام بطريقة بشعة، تماما على طريقة " عشاق المقاهي الشعبية" وهو يردد: " عفوا سيدي."؛ "عفوا سيدتي."؛ " استسمح أخي الفاضل."؛ " عذرا أختي الفاضلة"، إلى أن يخرج بسلام إلى الممر الرئيس المؤدي إلى الخشبة. ينزل بخطى ثابتة؛ كأن كل هذه القيامة أقيمت لأجله؛ أو كأنه فعلا فاز بجائزة نوبل للآداب أو الأخلاق. وما كل المتوجين إلا هواة أو تلامذته المتأثرين بفلسفته وأدبياته.

وقف العميد، أستاذ الأدب المقارن، أستاذ الشعر الجاهلي، أستاذ الجغرافيا ومديرة المعهد الفرنسي الأنسة "جوليان". هم موحا بمصافحة المشرفة أولا، فشكرها وقال، بعدما رسم ابتسامة خفيفة معبرة على محياه: " لقد أتعبناك اليوم.".

ومن ثم صافح الجميع برزانة وثقة في النفس، إلى أن حدا حدو "جوليان"، فحياها تحية وجيزة ونطق بجملة باللغة الفرنسية، أضحكتها ضحكة جميلة؛ فتلألأت عيناها الزرقاوين زرقة سماء الريف في الربيع. وتجاوزها بسرعة كأنه ود أن يفهمها أن تلك العيون لا تعنيه؛ وأن عيونا ربما وهمية، لكنها تلازمه صباح مساء، منعته من التغزل بها واستعراض بعض من أبيات " أزهار الشر" أو بعض من شعر "رامبو" أو "فيرلين".

كان موحا يرتدي "تي شورت" أزرق باهت اللون، وسروال "تجينس" بنيا وحذاء أسودا. فزادته تسريحة الشعر- على طريقة عبد الحليم حافظ - أناقة وجمالا؛ وأضفى تناسق الألوان على هيأته نوعا من الكاريزما وليدة الحزن وليد الفكر وليد العقل والتعقل. وزادته مشيته المنسجمة المتسقة فخامة وكبرياء. كانت الجماهير تغرق في الصمت. حتى الذباب الذي كان يجوب الصفوف يسرق نقطة دم من هنا وأخرى من هناك، اختفى أو تسمر في أحد الأركان لاستراق السمع.

حظيت "جوليان" وهي أصغر مديرة معهد فرنسي بالمغرب، بشرف تسليم الجائزة للفائز. فسعدت بذلك خصوصا وأنها لم تسمع أحد المتوجين العشرة ينطق بلغة "موليير". والأوروبيون، بما في ذلك الباريسيون، يعشقون لغتهم ويدافعون عنها ويحبون المتكلمين بها. كما أنها أعجبت بشخصية موحا الذي، ربما، ذكرها بـ "ألبير كامو" أو بـ " برنار باس" في وسامتهما ونبوغهما. أو "جاك بريل" وهو يغني " لا تتركيني"..

و لم تكن "جوليان" الوحيدة التي استسلمت لطاقة موحا العجيبة و سحره السماوي الطبيعي الذي بثه في وجدانه "با العربي" و ابتسامة الملائكية، ابتسامة النصر الذي يزرعها الأمير في نفوس شعبه، فيطمئن الشعب و يهتف و هو يردد شعارا من شعارات المجد الثورية، أو كتلك التي يجعلها الفقراء و المساكين تنبع من أعماق قلوبهم المستسلمة لقضاء الله و قدره أو كابتسامة البؤساء الذي يحاولون جاهدين ألا يتبعوا معهم الآخرين، شفقة بهم و دراية بهول الأحزان، أو كابتسامة مطرب أو شاعر مقهور يندب رحيل عشيقته فتغدو موسيقاه حزينة على نحو جنوني، و كأنه يضيف في كل نغمة تنهيدة، فيتخيل للمتسمعين أنهم في ليلة ظلماء يشيعون شيخا حكيما أو راقصة. إذ هاجم الإلهام طالبة من الجنوب بزيها الصحراوي

التقليدي؛ تنام في عيونها النجلاء مقلتين سوداوين سواد الدجنة وينير وجهها بياض كالثلج الذي لم يمسسه بشر ولم تطأه أقدام. وكان لا يفصلها عن الخشبة سوى مترين أو ثلاثة، ارتجلت بيتا شعريا من شعر "التبراع" انبهارا بموحا. و "شعر التبراع" هو شعر صحراوي مغربي تنظمه النساء للتغزل بالرجال خفية. تقول إلى زميلتها: "*عَنْدُو تَبْسِيمَة تُحْيي لْعِظَامْ الرَّميمَة.*"

فتقدمت "جوليان" وسلمت له درعا فضيا عبارة عن تمثال لشاعر يوناني وشهادة تقديرية؛ دون أن تكف عن النظر إليه بحماسة وإعجاب شديدين وهي تهنئه وتقول: " برافو؛".

أحس موحا حينئذ بانقباض خاطره ورفرفة قلبه بين ضلوعه، فاصفر وجهه وراودته مشاعر الإحباط اللحظي وأحاطت به في رمشه عين خيبة ويأس لا معنى لهما، وحاصرته عفة منقطعة النظير؛ كأنه بصدد ارتكاب ذنب أو الاقتراب من معصية. فهاجمته صورة "رانيا" في هيئة غمامة، كأنها عروسه، تضع على شعرها الطويل الأسود سوارا من أزهار الأقحوان والأوركيد، وهي تستشيط غضبا بسبب أميرها الوهمي، الذي هو على وشك الوقوع في حب أجنبية شقراء، تحاول استدراجه إلى غرفتها حمراء اللون، واللعاب يسيل من ثغرها الأحمر الداكن؛ تود لو تقتات عليه كحبات رمان طرية، حلوة المذاق، يتدفق

الماء من لبها كنبيذ فرنسي عتيق يباع بالملليتر بآلاف الدولارات تحت رقابة الجمارك وتحت سلطة السلاطين وجاه الأباطرة.

فأطالت "جوليان" النظر إليه وأطال النظر إليها. حتى إن الجماهير بدأت تصفر وتهلل كأنما رأت في هذا المشهد عارا أو خروجا عن المألوف. بينما اشتعلت القاعة حديثا وقهقهة وبدأ البعض يحمل أغراضه بتثاقل والبعض غادر غاضبا غير راض، والبعض الآخر تسمر في مقعده يترنح وكأنه ينتظر بداية لتبادل القبلات.

فزاد توتر موحا فانتقل لون وجهه من الأصفر الخفيف إلى الأحمر الداكن وبدأت حرارته في الارتفاع على نحو جنوني.

وفجأة تدخلت المشرفة فقالت بعجالة وكأنها تحاول قمع شرارة حب تحت تأثير الغيرة أو الحسد؛ فقالت وهي تحبس ضحكة ثقيلة على القلوب: " فليتفضل الفائز لإلقاء كلمته". يفزع موحا وتتراجع "جوليان" بخفة دم وتلقائية، كأنها تود أن تلقي اللوم على موحا وتتبرأ من غريزتها وتلقي بها في الفراغ وهي تبتعد عنها بعنف. تقدم موحا إلى المنصة وما كاد يصل حتى أحس قشعريرة تسري في روحه فتوقظ ما لا نهاية من الذكريات ويدب في ركبتيه فشل جزئي كاد أن يوقع به على أنفه. يقول بتلعثم:

" سيداتي؛ سادتي، السيد رئيس الجامعة، السيد العميد، السادة عمال النظافة، السيدات عاملات النظافة، زميلاتي، زملائي؛

إنني أخاف أن أكذب عليكم فأردد ما قاله المتوجين للتو: " سعداء... وما إلى ذلك." وهم أحرار طبعا في شعورهم وإحساسهم وأنا مثلهم، أريد حقا أن أسعد وأن أعرف معنى السعادة، ولطالما تمنيت أن أعيش تجربة أحدهم وأن أقف على طريقته مبتهجا مكتفيا بما بين يدي من حب وجاه وصداقة؛ أريد ذلك حقا وكلكم تطمحون إلى ذلك ولا أنفي أن هناك من أمثالي كذلك من يجلس هنا حائرا مضطرما. أعتقد أنني كنت صريحا إلى حد ما فيما قلت.

فأنا لا أستطيع أن أقول إنني سعيد بهذا الفوز؛ ربما يعرف جلكم أو كلكم، فالعالم أصبح ليس فقط قرية وإنما بيتا صغيرا أو شرفة ضيقة لا تخفى فيها خافية ولا يستر فيها عيب ولا يكتم فيها سر، أنني مررت بأصعب الظروف وأشد المصائب وأخبثها وأعنفها على الإطلاق. صحيح أن المصائب تلد الرجال وتربي في كيانهم الصبر والسلوان والرضا بقضاء الله. صحيح أن الحياة ما هي في آخر المطاف إلا موتا بطيئا؛ لكن هل نعيش كلنا نفس الحياة؟ لا طبعا فلكل حياته الخاصة ولكل منا أحلامه التي ينشدها وآلامه التي يخفيها وأسراره التي

يدفنها بعناية وشره الذي يصرفه خفية. ولا أجد فيما أقول نوعا من الجدة أو النبوغ.

نعيش حياة مشتركة. نشترك في اللغة كما نشترك في الحب. من منكم لا يحب الربيع؟ ومن منكم يكره ما اختار أن يحب من جمال وزينة الحياة؟ ومن منكم لا يعشق ذلك الصباح الممطر في الجو الدافئ؟ من منكم لا يحتاج إلى العناية والاهتمام؟ حتى وإن قال "سارتر" أن "الجحيم هو الآخر." فلا تأخذوا قوله على محمل الجد. قد يكون قتلة "سقراط" جحيما؛ وهذا صحيح إلى حد ما؛ قد يكون المجرمين جحيما في نظر أسرة الضحية، وهذا صحيح إلى حد ما أيضا، بحيث يظل المجرم عزيزا، محبوبا عند أمه حتى وإن ارتكب جريمة لا تغفر. قد يكون أشباه الفلاسفة والمثقفين جحيما بالنسبة للعقلانيين ولكنهم يحبون أنفسهم ويفتخرون بما قاموا به من أعمال؛ قد يكون عشاق المقاهي الشعبية جحيما بالنسبة لي، لكنهم لا يشعرون بذلك حين يجتمعوا للخوض فيما يرونه مهما أو ليفعلوا ما يرونه جديرا بالفعل. إذ يقول المثل الشعبي المغربي: " كل جدي عند أمه غزال". أي أن الأم ترى في ابنها، بالرغم من كل العيوب التي قد يتصف بها، غزالا، للدلالة على جماله من جهة وحبها له من جهة أخرى.

لكن، ما يجب أن تعرفوا، هو أن الجحيم لكي يكون جحيما، فإنه يحتاج إلى الحطب. بغض النظر عما تقدمه لنا اللغة المجازية، ماذا يمكن أن نسمي نارا بدون حطب؟ أو حطبا بدون نار؟ أو نار بدون لهب؟ أو لهب بدون رماد؟ أو رمادا بدون احتراق؟ أو احتراقا بدون أوكسجين؟ أو أوكسجين بدون احتراق؟ ماذا نسمي شرا يفتقر إلى نقيضه؟ وماذا نسمي خيرا بدون شر؟

كما أنني لا أستطيع أن أقول إن الحياة مثلا هي نقيض الموت. فهي تحوي في طياتها الموت. كما لا أستطيع أن أجزم أن الحياة هي البداية أو إن الموت هي النهاية. فالتصورات شتى. إذ إن المصريين القدامى، على سبيل المثال، لا يؤمنون بكون الموت هي نهاية الرحلة بقدر ما يعتبرونها بداية. لذلك فالحياة بالنسبة لأي كائن عاقل هي أكثر المفاهيم مدعاة للدهشة، الخوف، الرعب... إنها أكبر تناقص على الإطلاق. بمجرد أن نولد، نموت. بطريقة أو بأخرى، شئنا أم أبينا. في الحياة هناك من الأمور ما هو خير، ومنها أيضا ما هو شر. إن الحياة معقدة إلى درجة لا تتصور. ولو لم تكن كذلك لما كتب عنها مئات الكتاب والمفكرين ذكورا وإناثا- فرؤية الحياة تختلف باختلاف الجنس- من شمال الأرض إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها.

كما إنني لست عاجزا عن تعريف الموت – أو السعادة. لكن ما يجب أن تعرفونه هو إن ذلك غير ممكن. وإن كان كذلك لحسم الأمر منذ سنين. إن زعم أحد على القول إن الحياة هي أن تعيش بسعادة فقط، كان فكره قصيرا ورؤيته محدودة. فالسعادة نادرا ما تتحقق بشكل أحادي. يعني أنه لكي تعيش سعيدا –مع إنني لا أعترف بالسعادة الأرضية- الحياتية- وجب عليك أن تضبط مجموعة –تكاد تكون لا متناهية- من الأمور.

على سبيل المثال يجب على الزوجين عندما يقرران الارتباط، أن يتفقا مسبقا على مجموعة من الشروط والأهداف. بمعنى آخر، وجب عليهما أن يعرفا بشكل صحيح معنى الحياة الزوجية، يجب أن يعرف الزوج معنى التضحية والرجولة وتعرف المرأة معنى الالتزام والعفة. يجب أن يدرك الزوج حقوقه وواجباته وتدرك الزوجة معنى الحب... هي جملة من المعارف التي إن غابت لا يتوجب على الزوجين المبادرة بالإنجاب والتسرع في إعطاء الحياة إلى إنسان، لأن هذا المولود مسؤول هو الأخر عن سعادتهما كما أنهم مسؤولون عن سعادته. على هذا النحو تبدأ سعادة الإنسان في التدهور. لأنه ببساطة يعيش في الحاضر ولا يعرف ما يخبؤه له المستقبل القريب والبعيد، أو ربما حتى ماضيه البعيد أو الأبعد. لذلك قلت إن تعريف الحياة غير متاح.

فهناك من يرى الحياة عدم وهناك من يراها أملا ونورا. هناك من ينتحر وهو لا يعرف إنه وجد ليعيش: "هناك مشكل فلسفي واحد هو الانتحار." ألم يكن كاتب هذه الأطروحة محقا؟

ولعل ما يدفع بالإنسان إلى الموت اللاإرادي: الانتحار؟ عدم وجود تعريف قار ونهائي للحياة وبالتالي السعادة؛ لأن الهدف المشترك بين كل البشر على وجه البسيطة واحد: "العيش بسعادة". أعرف شخصا انتحر لأنه فقد والديه. وقد كانا يعملان في مصنع سري. لا نستطيع أن نلومهما على ذلك. فلم يتمكنا من الحصول على تكوين يتيح لهما العمل في وزارة المالية أو خزينة الدولة. فقراء ومعوزين. حتى المكان الذي يعملون فيه "سري". فمشغلهما لا يكترث لصحتهما ولا لمستقبلهما، لا يكترث لموتهما أيضا. يعملان في سر لكي يدفعا لابنهما مصاريف الجامعة، لكي يتمكن من العمل في إحدى مؤسسات الدولة فيغنيهما عمله عن العمل في السر. لكنهما ماتا قبل الأوان، إثر حادثة شغل. ضاع كل شيء. إن هذه النهاية التراجيدية هي ما دفعت الابن إلى الانتحار. كدليل على عدم الرضا وعلى السخط على ما تسمونه "الحياة".

وهنا أريد أن أنهي خطابي. وعلى غرار زملائي من الفائزين، أود جادا أن أهدي هذه الجائزة إلى صديقنا "على ميم لام"، الطالب الأمازيغي

الذي شاء القدر أن يترك الكلية؛ وهو طالب فيزياء كان شغفه بالعلم كبيرا لا تحتويه إمكانيات أسرته الريفية الفقيرة. و السلام عليكم ورحمة الله."

بعد انتهاء الحفل، أجرى رئيس الجامعة برفقة "جوليان" والعميد اجتماعا تم خلاله مناقشة موضوع سفر الفائز وإقامته بالبلد الذي سيختار. فكان أن قدم له الرئيس ثلة من الوثائق والاستمارات المعدة للملأ حتى يتم إرسالها إلى المسؤولين بوزارة الخارجية ووزارة الشباب والرياضية واللتان سيرسلانها بدورهما، بعض التوقيع على ما ورد فيها، إلى الوزارتين بالبلد المستضيف.

وقد كان موحا قد قرر وجهته في ذلك الصباح؛ إذ اختار السفر إلى السودان. حيث أعجب بهذا البلد بفضل كتابها وأدباءها العظماء، خصوصا "ادريس جماع" الذي قرأ له الكثير من القصائد وغاص في معانيها العميقة، فاكتشف أنه شخصية أدبية تاريخية وأكثر من ذلك فموضوع إصابته بالجنون وتنقله من مستشفى أمراض عقلية إلى مستشفى آخر، وحبه للنساء الجميلات وبلاغة شعره، كانت من ضمن الأمور التي زرعت في نفس موحا فضولا هائلا ورغبة طفولية في التعرف أكثر على هذه الشخصية. إذ رأى أنهما يتشابهان إلى حد ما، خصوصا في قصص حبهم. إذ يقول الشاعر وهو يتغزل بعشيقة: "

" دنياي أنت وفرحتي ومنى الفؤاد إذا تمنى

أنت السماء بدت لنا واستعصمت بالبعد عنا

هلا رحمت متيما عصفت به الأشواق وهنا

وهفت به الذكرى فطاف مع الدجى مغنا فمغنى

أنست فيك قداسة ولمست اشراقا

ونظرت في عينيك آفاقا وأسرارا ومعنى..."[5]

في المقابل، كانت الحياة في الريف تزداد سوءا، مع توغل الأيام شيئا فشيئا في الصيف. إذ اشتد الحر واختزلت المسافة بين الأرض والشمس، كأن الطبيعة تهدد بالرجوع إلى أصلها القاسي. ولم تجد بدا من إظهار غضبها واستعراض عضلاتها تارة عن طريق هزيم الرعد وشرارات البرق، فترسل سيولا من المياه المصحوبة بالأوحال والأحجار وجذوع الأشجار الميتة وعظام الجيفة وأشلاء مواد البناء، بل تجرف كل شيء يبدو قابلا للسحب. وتارة أخرى تسمح لحشرات وزواحف سامة بالتسلل إلى بيت الأسرة، تبحث عن ماء زلال بارد

---

[5] ادريس جماع، قصيدة "السماء".

يطغى حرها ويسقي عروقها الملتهبة، فتركن إلى جوانب البيت وتتخذ من أحجاره وزواياه مسكنا ومستقرا لها.

لم يعد بمستطاع الأسرة أن تروي عطش الخروفين والكلب والأرانب والدجاج. يكتفي سليمان ببعض الليترات من الماء، يجلبها بشق الأنفس من بئر غائر، بعيد، يكلفه ذلك ساعات طوال وتعبا وإرهاقا بالرغم من إنه يتنقل على ظهر جحش هش.

أصبح سليمان كئيبا، خصوصا بعدما علم بسفر جليسه في القسم إلى أوربا وأنه سيحظى بفرص كثيرة هناك. إذ جاءه صديقه عشية إحدى أيام تموز سعيدا مغمورا بفرحة تكاد تسعد جميع المنكوبين؛ فودعه بسرور ولم يجد سليمان في ملامحه شيئا من البؤس، كما عهده، ولم ير في عيناه غيمة ألم جراء فراق أسرته أو أصدقائه، فلم يجد سليمان بدا من مشاركته هذه الفرحة رأفة به وتحفيزا له ولم يشأ أن يكدر عليه بهجته. إلا أن ادريس كان يكتم سرا؛ احتفظ به إلى أن حان وقت الوداع النهائي، فتقدم شطر سليمان وقال بتردد:

- أسبق أن كذبت يا سليمان؟
- نعم. ومن منا لم يكذب يوما؟
- هل لي بمعرفة كذبتك؟

- كذبت على أمي وأبي وقلت لهم أنني نجحت؛ في حين أنني رسبت.
- هل صارحتم بعد ذلك؟
- طبعا، فأبي أصبح منهكا مريضا أكثر من أي وقت مضى ولم يعد بوسعه أن يعاقبني أو أن يأنبني. أما أمي فقد سامحتني دون أن أطلب منها ذلك.
- وماذا عن موحا والزبير؟
- الزبير يحبني حتى وإن رسبت؛ لذلك فلم أكذب عليه فصارحته في يوم الإعلان عن النتائج؛ فكان أن ابتسم وكأنه يحاول أن يقول لي: " لا تكترث." أما موحا، فهو لا يحب المدرسة. وقد قرأ الكثير من الكتب وأصبح فيلسوفا، سيحصل على ديبلوم جامعي هذا الصيف وسيصبح أستاذا. كان دائما يحدثني ويقول: " المدرسة لا تعلمنا كيف نعيش. المدرسة لا تعلمنا كيف نموت. المدرسين يعنفوننا. المدرسين يقتلون المواهب ولا يؤمنون بها. لن أنسى أبدا ذلك اليوم حين صفعني معلم بالصف الثاني؛ لقد كنت بريئا، ومع ذلك لم يتردد في صفعي كأنه يكرهني وأنا لا أكره المعلمين؛ كنت أحبهم. أما اليوم فلا أطلب منك أن تنجح في دراستك، لكن

عليك أن تفهم الحياة؛ هناك طرق كثيرة لفعل ذلك.". وكان موحا على حق. فمعلمنا هذا الذي يتغيب طول العام، كان دائما يعاقبنا؛ خصوصا وأنت كنت تجلس بجانبي، حين يطلب منا التكلم بالفرنسية؛ أ أنا فرنسي يا ادريس حتى أتكلم الفرنسية؟ إذا كان هو يتقنها فأنا أتقن سقي الماء والرعاية بأخي الزبير وبأمي وأبي والخرفان والأرانب والدجاج. إني أحب الحيوانات فهي لا تكرهني كما يفعل المعلم وتحترمني وتحبني. ولطالما حدثك عن "اسبواغ" كم كان وفيا؛ حتى إنه تغيب لأسابيع طويلة وحين التقيته، ركض نحوي وعانقني وعاد معي إلى البيت وهو يحوم بي كالطفل الصغير.

- وهل تصالحت معه بعدما تركك وحيدا؟
- طبعا. الكلاب تغفر دائما؛ ومن العيب ألا نغفر نحن البشر.
- وإن بحت لك بسري؛ هل ستسامحني أنا أيضا؟
- على ماذا تتحدث بالضبط؟
- عن "اسبواغ"؛ لقد وجدته رفقة كلبتنا في ليلة من ليالي الشتاء وقد أبهرني بجماله. ولا أخفي عليك يا صديقي أن الشيطان كبلني وأقنعني بأن أحتفظ بكلبك في حظيرتنا...

لم يكن ادريس يعلم ما عاناه سليمان في غياب كلبه؛ فهو صديقه الوحيد ومؤنسه الذي لا يعوض. لم يكن يعلم أنه بكى لفقدانه مرات كثيرة وبحث عنه في كل البقاع كالأحمق، بينما لم يكن اللص سوى جليسه في القسم الذي يشكو له أحزانه ويتقاسم معه ما يعتريه من خيبة أمل وتأنيب الضمير إثر تفريطه في كلبه. فتطلع إليه وألقى عليه نظرة شرزاء محملة بالحقد واللوم. فلم يلبث أكثر من ثانية أو اثنتان حتى تركه في موضعه كالصنم، وتوغل في الغابة غير مكترث بنداءاته المجانية. كان الليل في طريقه إلى الهيمنة على الريف، وكان ادريس مجبرا على العودة إلى البيت ليستعد للرحيل فجرا.

أصبح سليمان يحب "اسبواغ" أكثر فأكثر، بعد ما علم أنه لو لم يحتجزه ادريس لما تغيب دقيقة عن البيت أو تركه يعاني بسببه. فكان يسقي عطشه إن اشتد الحر ويجلب المزيد من الماء من البئر ليغسل فرائه وينعش جسده. فتأكد سليمان أن الكلاب وفية فعلا وأن البشر خائنين، يخالفون الوعود.

وتوالت الأيام تباعا، دون أن يتغير شيء. السماء مزخرفة بالسراب. الحشرات تطلق صافرات الإغاثة. الأفاعي تملأ الدنيا فحيحا. الكلب يلهث. الخروفان يبحثان عن الظل فلا يجدانه. البئر ازداد غورا.

الرياح تهب نارا. العشب تضاءل. الجو كشر على أنيابه. لقد أصبحت الحياة شبه مستحيلة في الريف.

لإعداد الخبز والشاي، كانت فاطمة توقد النار في الصباح، فتتضاعف حرارة البيت فيغدو جهنميا. لم يجد أفراد الأسرة بدا من النوم أمام البيت في الليل، لعلهم يظفرون بالقليل من الهواء العليل والنسيم البارد. إلا أن ما أقدموا عليه ذات ليلة كان مأساويا.

في الثامن والعشرين من آب، بلغ موحا خبرا كان ينتظره ولم يكن يعلم بعد لا كيف سيستقبله ولا كيف سيصبح بعد أن يستقبله. ولعل هذا ما دفعه إلى دراسة الفلسفة؛ لكي يفهم الوجود.

كان موحا قد ناقش بحثه ونال ديبلوم الجامعي بامتياز. مما سيسهل عليه الحصول على عمل كمدرس؛ كان موحا مرتاحا إلى حد ما، وكان ينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي سيركب فيه الطائرة لتحلق به في الفضاء، لطالما حلم أن يطير وها هو الآن على بعد يومان أو ثلاثة على تحقيق حلمه.

إلا أن لا شيء مضمون في الحياة. كل شيء نسبي. الجو الصحو يمكن أن ينقلب في رمشه عين إلى زوبعة أو عاصفة رهيبة. البحر الهادئ المتلألئة مياهه، قد يثور ويغضب في أي لحظة. لا مجال للثقة في هذه

الحالة. على الإنسان أن يظل مستيقظا. كان موحا نائما حين دق أحد المسؤولين باب غرفته بالحي الجامعي، مرفوق بالمدير. فتح موسى الباب.

- السلام عليكم. يتكلم المدير. مضيفا: هنا يسكن موحا ميم كاف؛ صحيح؟
- نعم سيدي.

وما إن سمع اسمه حتى انتفض انتفاضة من سريره، ليجد نفسه أمام المدير. كانت عينا موحا تعج بالعمش، فهو في عطلة ولا ينام إلا متأخرا: يساهر الروايات والقصص. فإذا به يمد له ورقة مهترئة، تم انتزاعها بالقوة من إحدى الكتب القديمة. فتح الرسالة بسرعة، إذ علم أن هذه النوعية من الأوراق لا يملكها سوى "با العربي"، فأخذ يقرأ:

"عزيزي موحا؛ لطالما تقاسمت معك أخباري وأحوالي في أيام خلت؛ فكان منها ما تسعد لسماعها وتضحك ضحكتك المعتادة، ضحكتك الجنونية، النابعة من أعماق قلبك الملائكي، الصافي، حين أتلوها عليك؛ ومنها ما كان يحزنك ويضجرك سماعها؛ هذه هي الحياة، لا نستطيع أن نتحكم فيها. كما أن العبارة هاته كانت مميزة بالأصفر،

على إحدى صفحات الكتاب الذي أهديته لي ذات يوم: " بما أنني على هامش البحر، يمكنني أن أتعلم من البحر. وليس لأحد الحق في أن يفرض على البحر أن يحمل كل البواخر، أو أن يفرض على الريح أن تنفخ كل الأشرعة." [6] هكذا تبدو الحياة، لا يقوى أحد على التحكم فيها.

كما إنني تمنيت لو كنت أميا لا أعرف الكتابة حتى لا أبعث لك بهذه الرسالة. أو أنني مت قبل أن أجبر على ذلك. اذهب إلى البحر إذا، عزيزي، واسأله من فضلك. قل له: " يا بحر؛ هل أنت مجبر على إنقاذ الغرقى؟" . وإن لم يرد عليك، فلا تحزن. كذلك الشأن بالنسبة للموت. إنها لا تجيب أحدا. وهي ليس ملزمة بالإجابة. هي تأتي فقط؛ وتخضع إلى إرادة خالقها.

وحين تعود من البحر، مر على أفضل حديقة في المدينة واقطف ما طاب من الورد. وبعد أن تختار ما أحببت منها وما اشتهت عيناك، لا تنس، عزيزي، أن تسأل تلك الساق التي جردها حبك من زينتها وتقول لها: " أيها الساق اليتيم. هل ستموت إلى الأبد؟ أم أنك ستزهر في الربيع؟" وإن لم يرد عليك. فلا تقلق. فالورود وجدت لكي تقطف وإن

---

[6] ستيغ داجرمان- حاجتنا إلى المواساة غير قابلة للإشباع- ص,17. مترجم

لم تقطف ستذبل. وإن لم تذبل سيقطفها طفل صغير لا يعرف قيمتها الدفينة في رمزيها وسيرميها في الشارع بكل لامبالاة. أما أنت، عزيزي، فستضعها بكل حب على قبر أكبر وردة في حياتك. ستغرسها في جوانب المقبرة لتتكاثر وتعطر الجو. إنك مقبل يا عزيزي على يوم ما أظنك عشت مثله من قبل. يوم ستفيض فيه جوارحك كلها بالألم. على أن يكون هذا الألم نابعا من الوعي بالحقيقة. تلك الحقيقة التي نهرب منها وهي تلازمنا وتعيش معنا:

"الموت."

موت الأم

لم يتمكن موحا من الوصول إلى الريف إلا بعد حلول الليل. جاء حافي القدمين. كان القمر مكتملا آنذاك. يستلقي مفتخرا في كبد السماء، ينير كل الأرجاء. وكان الجو باردا على غير عادته. كانت الصراصير والضفادع تملأ المكان ضجيجا مرعبا، مخيفا. كأنها تعترض طريقه وتمنعه من التقدم. كان "اسبواغ" ينوح نواحا غريبا. كأنه يبكي. كان كل شيء في الريف يتبارز: حفيف الأشجار، صوت البومة الذي يتردد في الوادي، وأصوات أخرى تتداخل إلى درجة يصعب فيها تمييز مصدرها.

"ما قيمة الريف يا أمي إذا؟ ما الجدوى من هذا القمر المنافق، الوصولي الذي يستقبلني بكل هذه الكبرياء؟ ما بها هذه الأشجار التي لم تحرك ساكنا حين اشتدت حرارتك؟ ما قيمة الخجل إذا يا أمي؟ ما الفائدة مني أنا الآن حتى وإن جئتك أجري على أنفي؟ ما بها هذه الحشرات تحاول أن تمنعني من الاقتراب منك؟ وما به هذا الكلب الذي يحاول أن يرشدني إلى قبرك؟ ما قيمة النسيم يا أمي إن لم

يرعاك في غيابي؟ ما قيمة البومة التي لم تأتي لتخبرني باقتراب ساعتك؟ يا أمي أجيبيني. لا تصمتي. ما قيمة الصمت إن رحلت؟ ما قيمة الموسيقى؟ الطرب؟ الجمال؟ من تكون هذه العذراء التي، إن غبت، ستواسيني بجمالها؟ من هي؟ ومن تكون؟ ما قيمة السفر؟ المطر؟ القمر؟ السمر؟ السهر؟ الأسف؟ يا أمي. ما قيمة التراب المبلل ورائحة الخرواع والزعتر والمسك؟ ما قيمة النوم؟ النعناع؟ الثلج؟ البصل؟ الثوم؟ العسل؟ ما قيمة العمل؟ ما قيمة العرعار؟ ما قيمة الحنان؟ ما قيمة البيت إن لم يجمعني بك؟ ما فائدة عود الثقاب؟ النار؟ الخشب؟ السكون؟ الحركة؟ الكتب؟ الأقلام؟ ما قيمة الأحلام يا أمي؟ ما قيمة السلام وأنت راحلة ما من ذلك بد، عني إلى الأبد؟ ما قيمة البعد؟ القرب؟ السرعة؟ العجلة؟ الخيال؟ ما قيمة الحقيقة التي أنقب عنها يا أمي وما قيمة الأوهام؟ ما قيمة الشفق؟ الغسق؟ البحر؟ البر؟ الأمواج؟ ما قيمة الأنصار؟ الأعداء، السماء يا أمي؟ ما قيمة الحنين؟ الأنين؟ الصراخ يا أمي؟ ما قيمة الحبيب؟ الغريب؟ القريب أو البعيد يا أمي؟ ما قيمة الوجود؟ العدم؟ السعادة؟ الندم؟ يا أمي. هذا البيت، إن حقا غبت، لن يعود لي. ولن أعود له. سأكتفي بالحزن عليك يا أمي. أتراه ينفعني إن حقا غبت عني؟"

وقف موحا للحظات فوق ربوة قريبة من البيت، كان أن سماها في طفولته "ظهر الحصان"، إذ كان يقضي فيها ساعات عصيبة يناجي نفسه ويساهر النجوم والقمر. وما هي إلا لحظات حتى انتفض مهرولا إلى البيت. كان الباب مفتوحا كليا، تنبعث منه رائحة "ماء الورد"، رائحة الموت في الثقافة المغربية.

كلما خطا خطوة إلى الأمام، ازدادت قوة الرائحة وتسارعت دقات قلبه، إلى أن وقف مباشرة أمام كتلة هزيلة، مغطاة بثوب أبيض ناصع. بالقرب منها كان سليمان يجثو على ركبتيه وهو يبكي بهدوء، حتى إنه لم ينتبه إلى موحا؛ بينما جلس عبد السلام على يمين الجثة يرتجف دون أن يذرف دمعة واحدة، كأنه مات بموت زوجته التي استحالت، بين عشية وضحاها، إلى ذكرى أليمة. ورقة خريف يتلاعب بها الريح.

أما الزبير، فقد امتزجت دموعه بالبول واللعاب، فغرق في مرقده وأصبح لا فرق بينه وبين الجثة؛ وكل ما ينقصه هو ثوب أبيض والكثير من "ماء الورد". أما "با العربي" فكان يرتل القرآن بهدوء وبصوت ملائكي، في محاولة لمواساة الأسرة المنكوبة، وبث الطمأنينة في نفوس أفرادها المهزومين.

أزاح موحا الثوب على وجه أمه الذي غدا بدون ملامح؛ وجه شاحب يفتقر إلى الدم. انهار موحا باكيا على الطريقة التي كان يضحك بها: بكاء عنيف وكأنه صوت متظاهر يحتج على قرار للحكومة. في حين، ظل با العربي يتلو القرآن، غير مبال بهذا المشهد؛ لم يتقدم لمواساة موحا، لأنه يعرف حق المعرفة أن ذلك لن ينفع، وأن الموت علينا حق وأنه لا سبيل للمرء في مثل هذه اللحظة إلا البكاء إلى آخر دمعة؛ فالدموع وجدت لذلك. وإن احتفظ بها لن تزيد المرء سوى عذابا وحرقة.

لطالما تحاشى موحا مشاهد الموت؛ فكان يكره الذهاب إلى المستشفى، أو المرور بالقرب من المستعجلات؛ كان يمقت صفارة سيارات الإسعاف وكل ما سمع صوتها المرعب، وقف وأخذ في الدعاء للمريض. ولم يكن السبب وراء هذه العادة سوى أنه لا يرغب في رؤية الضعف في أعين المرضى، والموت وهي تهددهم باختطاف أرواحهم وهم متثبتون بالحياة.

مضى الليل إلا أقله. با العربي يرتل القرآن. موحا يبكي. سليمان يتذمر. عبد السلام يرتجف. الزبير يحتضر. لا مجال للطعام ها هنا؛ وحتى إن وجد، لا مجال للشهية. الطيور تسمرت فوق الأغصان غير آبهة ببطونها؛ القمر انقشع من شدة الخجل؛ حتى الشمعة الوحيدة

التي تضيء ببخل البيت، احتفظت بدموعها إلى إشعار آخر، ولفظت ما تبقى من أنفاسها، فاسحة المجال أمام الفجر. "ما قيمة الفجر يا أمي إن حل بعد رحيلك؟" يقول موحا وهو يتباكى.

وما إن تسربت خيوط الضوء من النوافذ، حتى توقف با العربي عن التلاوة، واندفع قائلا:" لله ما أعطى ولله ما أخذ، إنا لله وإنا إليه راجعون. لن ينفعنا البكاء يا إخواني في الله؛ يجب أن ندفن الجثة قبل أن تتعفن. وندعو الله أن يشملها برحمته ويسكنها فسيح جناته. لقد كانت امرأة شريفة وأما حنونة.".

كان "با العربي" قد حفر قبرا غير بعيد عن البيت، ونقش عليه اسم المتوفاة: " فاطمة.. "، وأضاف: " كل نفس ذائقة الموت". كما أنه أحضر نعشا و "ماء الورد" والبخور.

حمل سليمان وموحا النعش وما كادا يفعلان...

وحين وصلوا إلى المقبرة: قبورها معدودة على رؤوس الأصابع. في أقصى اليمين، تحت شجرة الكلبتوس، يرقد المسمى قيد حياته "الحاج الكبير"، أحد أغنياء القرية. قتلته زوجته وأمرت بدفنه بعيدا. في أقصى اليسار، في بطن التل، يرقد سائح أمريكي، قتلته مامبة سوداء. وفي الوسط، ينام غريق. غريب.

وقف موحا متوسلا إلى "با العربي" ألا يدفنها أو أن يدفنه مع جثتها بدون تردد وإلى الأبد. واستمر تمرده لساعة أو ساعتان، حتى ظن الجميع أنه أصيب فعلا بالجنون؛ فلم يفلح أحد في مواساته ولا في إقناعه بالكف عن هذا التصرف اللاعقلاني. ولما هدأ، تراجع شيئا فشيئا، ثم فر هاربا صوب "ظهر الحصان"، ليبكي ما شاء الله من الوقت...

بادر با العربي بدفن الجثة، وتلا ما تيسر من القرآن عليها. وما إن أنهى صلاته حتى اشتد الحر من جديد. الكثير من السراب منتشر في البر والجو. قطعان من الكلاب تلهث وهي تجري صوب الوادي. الجراد والصراصير والضفادع في حالة سكر علني. تحتج. كلبة تخلت على جرائها، في حالة نفور. نسر يطلق صفارة إنظار. كلب يعوي...

ضاق عبد السلام في جلبابه الصوفي. أصيب بالدوار. خانته فاطمة. ماتت. تخلت عنه. زادته جرعة خوف. خربت خلاياه. مزقت آخر خيط يربطه بالأمل. تجرد من هندامه البدوي بعنف لأول مرة، فإذا به هيكل عظمي، وكأنه لوحة لفنان تشكيلي وجودي عنوانها "الموت". تكلم "با العربي" بحسرة: " إن الله رحيم بعباده يا عبد السلام. وأمنا فاطمة، رحمها الله، لم يقتلها سم أفعى، بل قضاء الله وقدره. ولا

يجب أن تحزنوا عليها كل هذا الحزن، ففي ذلك عدم رضا عن الإرادة الإلهية.".

تابع عبد السلام المشي بشق الأنفس وكأنه في خضم تسلق جبل. يجر حذاءه المطاطي بحسرة. يردد "لا إله الله"...

وما إن وصلا إلى البيت، حتى كان الأوان قد فات. مات الزبير.

موسم الجنون

مات الزبير. أخيرا. ومات عبد السلام في نفس الليلة. أما سليمان فلا يعلم أحد إلى يومنا هذا أين فر، كيف ولماذا؟ أصيب موحا بالجنون. وكانت وزارة التربية قد عينت معلمة جديدة في نفس المدرسة التي درس فيها موحا وسليمان. اسمها "رانيا". فما إن رآها ذات يوم، حتى ازداد جنونه، فركض من شدة الحزن صوب منزل با العربي ليحدثه عما رأى.

لم يعره "با العربي" انتباها. فقد علم أنه فقد صوابه حقا وإلى الأبد. فلم يرد عليه المتصوف أبدا، ولم يتقدم لمواساته حين كان في أمس الحاجة الآن، إلى العزاء. لقد مات الإنسان الوحيد على الأرض الذي يعرف تاريخ إنسان شقي، مجنون.

هجع موحا بقربه، بعد أن انقطع رجاؤه ونفذت عبراته وماتت مشاعره... نام هو الآخر إلى أجل مسمى. فلم يبق في الريف سوى اللا شيء ومذياع أصيب فيه صحفيون بالملل. يكلمون الفراغ. يشرحون نظرية النسبية وسبب ارتفاع الأسعار... للأموات.

في الثامنة، يقدمون الأخبار. في الثامنة والنصف، يقدمون الأخبار. في التاسعة إلا ربع... أخبار في أخبار... العالم لا يتغير.. الأخبار لا تغير أي شيء.

ومع ذلك، استمر الصحفيون في الكلام إلى أن جاءت فقرة الطقس. قالت المذيعة ما قالته. جاءت في آخر الليل فقرة الثقافة. حلقة ضيفها شاعر مجنون. يتعذر الاتصال به. تم الاعتذار للمستمعين، الذين ناموا سلفا.

النهاية

الفهرس



ألهذا السبب هربت يا "اسبواغ"؟ لأنك لم تتحمل كل
هذا البؤس؟ لن ألومك إذا. بإمكانك أن تعود حيث كنت.
فقد كتب علينا أن نعيش طوال حياتنا على هذا النحو.
لن تسعد معنا.. أقسم لك. لن يبتسم في وجهك أحد.
حتى أمي ستمل من سلوكك الحيواني. و ستصرخ، لا
محال، في وجهك و تأنبك على النباح. أتعلم معنى ذلك؟
وإن سرقت خرافنا، سيقتلك أبي وسيقول بدون تردد،
بأنك كلب ضعيف، غير قادر على حمايتنا. سيضحك
عليك موحا. إنه يضحك بلا سبب. أريدك أن تعيش
بسعادة، ما دمت حرا. ولن أجبرك على المكوث معي. أنا
أحبك طبعا، لكن أنت حر. اهرب إن شئت. اسرح في
الأرض. عد إلى منفاك. لا تلتفت وراءك. فلا أحد هنا
مستعد ليدلل كلب. هاجر. اركض دون توقف، وأنبح إلى
أن يقول لك الأفق: لا داعي للنباح، فقد صرت أنا وأنت
سيان.

